سورة الكوثر

مكية وهي أربع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية عند أكثر الرواة، بينما يرى الحسن البصري وعكرمة وقتادة أنها مدَنية (البحر المحيط، وروح المعاني). أما المستشرقون فيرون أنها مكية، وقد نزلت في أوائل الإسلام. (تفسير القرآن للقس "ويري")

لما أعلن النبي ﷺ النبوة اعتبره بعض مشركي مكة مجنونا -والعياذ بالله- ولم يُعيروه بالا، ومنهم مَن قالوا إن هذا يريد أن يفسد دين العرب، فتجب محاربته، فقاموا لإيذائه، ومنهم من قالوا لإخوانهم بأنكم إذا عارضتموه وآذيتموه صرفتم أنظار الناس إليه من دون داعٍ، فإن الناس يأتون إلى مكة من خارجها، فإذا رأوا إيذاءكم له ثار فضولهم، فيسألون عنه ويرغبون فيه، فيزداد صيتًا وعزًا. لا شك أننا لا نرضى بما يقول ويفعل، وأن ما يدعو إليه يتنافى مع ديننا، ولكن خير لنا ألا نتعرض له، لكي لا يكتسب صيتًا وأهمية بين الناس. وكان من هذه الفئة الأخيرة العاص بن وائل الذي كان أحد زعماء مكة، فقال: "دعُوه، إنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك لانقطع ذِكرُه واسترحتم منه". (البحر المحيط)

وهذا يعني أن العاص بن وائل كان يرى أن محمدا ﷺ إنما يريد السيادة التي لا تُنال ولا تستمر إلا بالأولاد الذكور -ذلك أن النبي ﷺ لم يرزق إلا البنات، وكان العرب يرون أنه لا قيمة لهن إزاء الذكور، إذ يذهبن بعد الزواج إلى عائلات أخرى. ولا يحافظ على اسم المرء إلا أولاده الذكور- فإذا توفي محمد انتهت دعوته تلقائيا، إذ ليس له أولاد ذكور يحافظون على دعوته، فلا داعي لمعارضته وإذاعة صيته. ويرى المفسرون أن الله تعالى قد أنزل هذه السورة ردًّا على العاص بن وائل ومَن على شاكلته.

والثابت تاريخيا أن العاص لم يكن الوحيد الذي سمى النبي ﷺ أبتر، بل كان هناك آخرون فعلوا مثله، وكان من بينهم أبو جهل، إذ كان عندهم أولاد ذكور، بينما لم يكن عند النبي ﷺ ولدٌ ذكر. وكان العرب يرون أنه لا بد من الأولاد الذكور للتحزب والسيادة، ولذلك قال بعضهم لبعض: دعُوه وشأنه، فإن دعوته ستموت بموته. إنها سحابة صيف، عن قليل تَقَشَّعُ، فلا داعي للتعرض لها، لأن هذا يزيده صيتًا ورقيًّا.

ولأن هذه السورة تفنّد آراء قوم سموا الرسول ﷺ أبتر، فظنّ البعض خطأً أنها سورة مدنيّة. لقد قالوا: لما توفي إبراهيم عليه السلام ابن الرسول ﷺ في المدينة، قال الكافرون: قد صار محمد أبتر، فنزلت سورة الكوثر تفنيدًا لهم (روح المعاني، والسيرة الحلبية: باب ذكر أولاده ﷺ).

ولكن ما دامت الروايات تؤكد أنها سورة مكية، فلا يصح اعتبارها مدنيّة لمجرد ورود كلمة أبتر فيها. فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا ظل الكفار صامتين حتى يولد إبراهيم عليه السلام ويتوفى؟ لقد وُلد إبراهيم قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أعوام، مما يعني -بحسب منطق هؤلاء المفسرين- أن أحدًا من الكفار لم يعيّر النبي ﷺ بكونه أبتر إلا قبل وفاته بثلاث سنوات. من ذا الذي يصدِّق أنهم ظلوا ينتظرون حتى يرزق النبي ابنًا ثم يتوفى فيسمّوه ﷺ أبتر؟ لم يكن عند النبي ﷺ أيُّ ولدٍ ذَكرٍ في السنوات العشرين بعد دعواه، وكان عندها قد دخل في شيخوخته أيضا، ومع ذلك لم يسمّه أحد أبتر! وما داموا قد انتظروا حتى ولادة إبراهيم ووفاته، فلماذا لم ينتظروا إلى ما بعد وفاة النبي ﷺ أيضا؟ لقد توفي إبراهيم عليه السلام وعمره سنة ونصف، وعاش النبي ﷺ بعد ذلك سنة ونصفا، فهل يصبح المرء عاجزًا عن الإنجاب في سنة ونصف؟ إنما هو مجرّد ظنّ لا يدعمه العقل.

هذه السورة تتحدث عن زمن النبي ﷺ بحسب القاعدة التي بيّنتُها مرارًا بأن السور الأخيرة من الجزء الثلاثين تتحدث بالتناوب -على العموم- عن الزمن الأول للإسلام وعن الزمن الأخير له. علمًا أنه ليس ضروريا أن لا تتحدث السورة المتعلقة بزمن الرسول ﷺ عن الزمن الأخير لأمته، أو العكس، بل يمكن أن تتحدث سورة

واحدة عن الفترتين، إلا أنها تركّز على إحداهما. وحيث إن سورة الماعون تحدثت عن الزمن الأخير للإسلام وبينت أن أمة النبي ﷺ ستصاب بأنواع المساوئ والفساد، وأن فئة منها سيصلّون رياءً، وسيفقدون روح الصلاة.. لذلك فإن سورة الكوثر تتحدث الآن عن الزمن الأول للإسلام، أي عن عصر الرسول ﷺ.

بعد سورة الكوثر تبقى سور قصار نسبيًّا، وكما أن الأذكياء من الكتّاب عندما يصلون إلى نهاية كتابهم يذكرون ملخص محتواه بهدف التأثير على القارئ، كذلك لما اقترب القرآن الكريم إلى نهايته صارت سوره قصيرة، حيث لخص الله تعالى فيها مواضيع القرآن.

لقد قلت من قبل إن هذه السورة قد نزلت في أوائل البعثة، وقلت الآن إنها تشير إلى بلوغ القرآن ختامه، وهناك تعارض في القولين في بادئ الرأي، والواقع أنه ليس هنالك مِن تعارض. لقد أثبتُّ في تفسير الجزء الأول من سورة البقرة● أن للقرآن ترتيبين: أحدهما ترتيب نزولي؛ وهو بالنظر إلى الفترة الأولى للإسلام، والآخر ترتيب تدويني؛ وهو بالنظر إلى عُمْر الإسلام، أي بالنظر إلى الأحداث إلى يوم القيامة، وهو الترتيب الحقيقي للقرآن الكريم، وإن من معجزات القرآن الكريم أن في الترتيبين حِكَمًا بالغة. فمع أن سورة الكوثر قد نزلت في أوائل البعثة، إلا أن الله تعالى كان يعلَم أنه سيضعها في ختام القرآن عند تدوينه، فأنزلها بحيث يكون موضوعها في تناغُم تام مع موضوع السور الواردة في ختام القرآن، ليدل على عظمة ترتيبه. فمع أن سورة الكوثر هي من أوائل السور نزولاً إلا أن موضوعها ينسجم مع مواضيع السور المتأخرة نزولاً كل الانسجام، حتى يخيل أنها قد نزلت بعد تلك السور. فقد أشير في سورة الكوثر إلى أن القرآن قد أوشك على الختام، فقد اكتمل بيان مواضيعه ومطالبه كلها، وقد اشتمل على المحاسن والمزايا كلها، فحريٌّ بها أن يطلَق عليها "سورة الكوثر". والحق أن سورة الكوثر تشير إلى اسم القرآن الكريم، حيث بين الله تعالى للكافرين أنه عندما أعلن محمد ﷺ دعواه لم

● ورد هذا في مقدمة تفسير سورة البقرة. (المترجم)

يكن قد نزل من القرآن الكريم إلا بضع سور قصار، فلما قيل لكم إن هذا الكتاب يحتوي المعارف والمواضيع ويسد الحاجات الإنسانية كلها، قلتم: ليس فيه إلا شيء من الأحكام التي تتعلق بالأخلاق، فما هو رأيكم الآن في هذا الكتاب وقد بلغ ختامه؟ أهو مجرد مجموعة أخلاق قليلة؟ ألم يحوِ المعارف والمطالب كلها؟ ألا يسد حاجات البشر كلها؟ وكأن الله تعالى قد نبّه الناس عند ختام القرآن إلى تحقّق أهداف نزوله تمامًا، وبيّن لهم أن الدعوى التي قام بها في بداية الإسلام قد تحققت بجلاء باكتمال نزول القرآن الكريم.

ثم إن سورة الكوثر تشير إلى أن محمدا رسول الله الذي نزل عليه هذا الكتاب هو أيضًا جامعٌ للعلوم والمعارف كلها. وكأن الله تعالى قد نبّه الكفار بقوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ بأن محمدا ﷺ قد أوشك على نهاية عمره، كما أوشك القرآن على ختامه؛ ألم تروا بعد أن القرآن قد حوى مواضيع واسعة سعةً غير عادية؟ ألم تروا أن محمدا الذي قلتم إنه أبتر، قد حقق الارتقاء والازدهار؟ ألم تنتصر أخلاقه الفاضلة؟ ألم يُعطَ الكوثرَ بعد؟

سئلت عائشة -رضي الله عنها- مرة عن أخلاق الرسول ﷺ فقالت: كان خُلقه القرآن. (مسند أحمد). لا حاجة أن أخبركم عن أخلاقه، اقرأوا القرآن تعرفوها، فكلما أمر القرآن بشيء عمل به، وكلما نهى عن شيء انتهى عنه، فإذا قال القرآن صلوا صلى، وإذا قال صوموا صام، وإذا أُمر بإخراج الصدقة تصدّقَ، وإذا أُمر بالرفق في موطنٍ رفقَ، وإذا أُمر بمعاملة المجرم بما يصلحه، عاملَه بما فيه إصلاحه، وإذا أمر القرآن بالعفو عن الناس عفا عنهم. وكأن عائشة رضي الله تعالى عنها تقول: لا حاجة لدراسة تاريخ حياته وبيان سيرته، فالقرآن صورة كاملة له، وكأن القرآن والرسول ﷺ لؤلؤتان خرجتا من صدفة واحدة، وكما التَوْأَمَين يشبه أحدهما الآخر حتى يصعب التفريق بينهما، ويضع الأطباء عليهما علامةً ليعرفوا مَن وُلد أولاً؛ فكذلك هو حال القرآن الكريم ومحمد رسول الله ﷺ، إذ تعرفون أحدهما برؤية الآخر. أي أن ما تعنيه عائشة -رضي الله عنها- هو أنكم إذا أردتم رؤية القرآن فانظروا إلى محمد ﷺ، وإذا أردتم رؤية الرسول فانظروا إلى القرآن الكريم،

فكل ما يوجد في القرآن يوجد في محمد، وكل ما كان يفعل محمد ﷺ يأمر به القرآن، وكل ما كان ينتهي عنه محمد ﷺ ينهى عنه القرآن. وكأن أحدهما ينير الآخر، فالقرآن يجلو محمدا ﷺ، وهو يُبرز نور القرآن.

من المستغرب حقًا أن تنزل سورة الكوثر في أوائل البعثة مشتملةً على أنباء مفصلة مذهلة عن أواخر حياة النبي ﷺ، حيث أخبر الله تعالى فيها عن العظمة التي سيبلُغها الرسول ﷺ عند وفاته، والقرآنُ الكريم عند ختامه. عند نزول هذه السورة.. أي في السنة الثانية أو الثالثة من البعثة، لم يكن للنبي ﷺ شأن يذكر، إذ كان عندها خامل الذكر، ولم يؤمن به إلا ٨ أو ١٠ من الناس، ولم تنزل عليه إلا ١٥ أو ٢٠ من السور القصار، ولم تكن هناك فرص لانكشاف أخلاقه الفاضلة بحسب منصبه ونبوته، ولم تكن قد تحققت بعد النبوءات الإلهية بحقه ﷺ سواء التي تنبأ بها الأنبياء السابقون أو التي كان قد أدلى بها بنفسه. كان لا يزال بمثابة نواة لشجرة كبيرة لم يخرج منها إلا ساقها، فمن ذا الذي كان بوسعه أن يقول يومها إن هذا الساق الصغير الناعم سوف يصبح في يوم من الأيام دوحة عظيمة يأكل الناس ثمارها ويستظلّون بظلها؟ كان ساقًا ناعمةً ضعيفةً يمكن للماعز أن تدوسها بأرجلها، وللدودة الصغيرة أن تقطعها. في تلك الحالة من الضعف والخمول أعلن الله تعالى على الملأ مخاطبًا نبيَّه ﷺ وقال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.. أي يا أهل مكة، لا تظنوا أن القرآن ليس بشيء، وأنه مجرد مجموعة تعاليم أخلاقية قليلة، كلا، بل سيصبح القرآن كتابا كاملا مكتملا. ولا تظنوا أنه ليس لمحمد شأن يذكر، كلا، بل إنه سيحرز مكانة عظيمة هي الكوثر؛ فلفظ الكوثر إشارةٌ إلى كل ما حدث في حياته من وقائع، وإلى كل ما وُهب من علوم ومعارف وأخلاق فاضلة وفتوحات وانتصارات. هل كان بوسع بشرٍ، يا ترى، أن يقدّم أي برهان على تفوُّق أخلاقه ﷺ في وقت كان هو ورفاقه هدفًا لصنوف الأذى والتعذيب؟ لو قال أحد عندها إن محمدا رحيم كريم، لقال العدو كيف تسميه رحيمًا كريمًا مع أنه ضعيف لا يملك حيلة، حتى جعلناه عرضة لأنواع التعذيب ولنا الغلبة عليه؟ فما كان خُلقه ﷺ هذا ليتجلى ما لم يصبح غالبًا على أعدائه ثم يرحمهم؟ لم يكن حول النبي ﷺ يومها

إلا أصحاب قلائل ضعفاء وبسطاء، فمتى كان بوسع أحد منهم أن يقول لرفاقه إذا اجتمعوا: إن جماعتنا الضعيفة القليلة العدد ستبلغ مئات الآلاف؟

فيا لها من معجزة عظمى! فقد أخبر الله تعالى- في ذلك الزمن المبكّر الذي لم يكن فيه ما يُثبِت تفوُّقَ أخلاق النبي ﷺ واكتمالَ كتابه- أنه سيأتي يوم يضطرّ فيه العدو للاعتراف بأن محمدًا والقرآن كليهما كوثر حقًا.

ماذا كان عند النبي ﷺ في أوائل بعثته يا ترى؟ لم يكن بحوزته ﷺ إلا شيء من وحي الله وشيء من وعوده ﷻ. ويمكنك تقدير مدى تأثُّر الناس بقول الله تعالى عندها: انظروا كيف نعامل محمدًا معاملة مذهلة؟ فمن ذا الذي كان سيصدّق ذلك؟ كلا، ما كان هذا الكلام مجديا إلا بأن يذكر الله تعالى معه بعض الأمثلة التي تدل على صدق وعده قائلا: انظروا كيف نصرْنا محمدًا في موطن كذا، وكيف عاملناه معاملة مميزة، سواء فيما يتعلق بالوحي النازل عليه أو فيما يتعلق بخُلقه العظيم. وكان ينبغي أن تكون هذه المعاملة الإلهية ذات شقّين: معاملته معه ﷺ مباشرة، ومعاملته معه ﷺ بواسطة العباد، أما بدون ذلك فما كانت أهمية هذه الدعوى لتنكشف على الناس. لقد وعده الله تعالى في بداية البعثة: إننا سنعطيك كل ما هو خير، ونعطيك بغير حساب. سنعطيك الكوثر في كل مجال، وستتجلى أخلاقك ومحاسنك مُبهِرةً للناس، وسنخصّك بكرمنا بلا نهاية، وسنعطيك كتابًا عديم المثال؛ ثم تحققت كل هذه الوعود في حياته ﷺ، حتى شهد العدو والصديق على ذلك. فما أعظمَها من معجزة!

عندما يبعث الله الأنبياء يَعِد كلاّ منهم بالغلبة والانتصار. لقد جاء إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء -عليهم السلام- وأعلنوا جميعًا غلبتهم على أعدائهم، ومن سنة الله تعالى أنه يجعل أنبياءه غالبين على أعدائهم فعلاً. أما محمد ﷺ، فلم يعلن عن غلبته على كفار مكة وغيرهم من العرب فحسب، بل أعلن أنّ غلبتَه ستكون أفضل من غلبة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. لو قال النبي ﷺ إنني سأصبح غالبا لكان معناه أنه سينتصر على أعدائه كما انتصر موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، لكن الله تعالى قد قام هنا بدعوى أكبر من ذلك، وهو

أنه ﷻ لن يجعل محمدًا غالبًا على أعدائه فحسب، بل سيكتب له غلبة منقطعة النظير، وهي لن تسمى غلبة، بل تسمى كوثرًا، ولن يعطيه كتابًا فحسب، بل كتابًا لا تنتهي معارفه، ولن يهب له أخلاقا فحسب، بل أخلاقًا هي أسمى وأعظم من أخلاق سائر الأنبياء. ستكون معاملة الله تعالى معه أعظمَ ما تكون. وهي ميزة لم تتيسر لإبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا غيرهم من الأنبياء عليهم السلام؛ ذلك لأن نبينا ﷺ لم يدّع أنه نبي فقط، بل ادّعى أنه خاتم النبيين، وقد تم هذا الإعلان في سورة الكوثر حين لم يكن للنبي ﷺ شأن يذكر، إنما كان إنسانا بسيطا خامل الذكر، فأخبره الله تعالى آنذاك أننا لن نعاملك معاملة الأنبياء الآخرين، بل نعاملك كسيد الأنبياء. فما أعظمَه من إعلان وما أكبرَه من تحدٍّ! حيث يعلن الله تعالى أننا لن نجعله ﷺ غالبًا على أعدائه فحسب، بل نكتب له من الغلبة ما تتضاءل أمامه غلبةُ الأنبياء الآخرين. وبالفعل فقد أخذ كل مفهوم من مفاهيم الكوثر ينكشف للناس بمرور الأيام وتغيُّر الأوضاع، وبدأ الكتاب -الذي كان يبدو من قبل بضع سور مشتملة على قليل من المسائل العلمية والقضايا الأخلاقية- يحوي علوم الدنيا ومعارفها كلها، حتى إذا اكتمل صارت كتب الأنبياء الآخرين كلها ضئيلة القيمة إزاءه. فعندما اكتمل نزول القرآن الكريم؛ لم ينكشف للناس زيف عقائد أهل مكة ولم يتضاءل أمامه شعر شعراء العرب فحسب، بل تضاءل أمامه الزبور والتوراة والإنجيل والفيدا والزندافستا كلها، وعندما بلغ النبي ﷺ أواخر أيام حياته، فلم ينبهر بسموّ أخلاقه وعظمة روحانيته أبو جهل والعاص بن وائل فحسب، بل أكدت وقائع حياته أن الكوثر الذي أُعطيَه ﷺ لم يتيسر لموسى ولا لغيره من الأنبياء، وأن النصرة التي حالفته لم تحالف غيره من الرسل. إن إنجازَ النبي ﷺ مهمتَه قبيل وفاته لم يدل على أنه كان يحظى بنصرة الله وتأييده الغيبي مقابل أبي جهل والعاص وغيرهما من الأعداء فحسب، بل دل أيضا على أنه كان أكثر حظاً من موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء فيما يتعلق بنصرة الله وتأييده.

لم يؤمن بالنبي ﷺ في البداية إلا قِلّة من الناس، ومع ذلك وعده الله بأنه سيبارك في جماعته، فلا يستطيع أحد مجاراته في هذا المجال. فتغيرت الأوضاع بمرور الأيام

وألقى الله في قلوب الناس حبًا شديدا له ﷺ، فاتسعت رقعة نفوذه من ناحية، ومن ناحية أخرى أثّرت تعاليمه في أهل البلد كلهم حتى رأى العالمُ أن الله تعالى قد أعطاه -قبْل أن تأتيه المنيّة- أتباعًا أفضل من أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، دَعْ عنك أتباع أبي جهل والعاص، حتى قال النبي ﷺ: لو كان موسى وعيسى حيّين ما وسعهما إلا اتّباعي (اليواقيت والجواهر ج٢ ص ٣٤٢).. أي لو كانا على قيد الحياة لم يكن لهما بدّ من أن يدخلا في أصحابي ويطيعاني. ما أعظمَ هذا الكوثرَ الذي أُعطيَه النبي ﷺ! لو نظرنا إلى حالته المبكرة وإلى معاملة الله معه في أوائل أيامه، وإلى تجلّي أخلاقه على مر الأيام، وقارنّا بين نهايته ومصيره، لامتلأت قلوبنا إيمانا.

والعلاقة المباشرة لسورة الكوثر بسورة الماعون تكمن في أن الله تعالى قد بيّن في سورة الماعون أن الذي يكذّب بالدين يصاب بأربعة عيوب، أوّلُها: البخل، كما قال الله تعالى ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، وثانيها: ترك الصلاة، أي أن قلبه يخلو من حب الله، وثالثها: ضعف الإيمان.. كما قال الله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون:٥-٨).. مما يلوّثه بالشرك ويجعله غافلا عن الله تعالى، فلا يصلّي أولاً، وإذا صلّى، صلّى بلا خشوع ولا تركيز، ويعتبر الناسَ آلهةً؛ إذ يصلّي رياءً لهم كي لا يعاتبوه، بل ليعتبروه من كبار المصلين؛ وبتعبير آخر، إنه ينكر عبوديته لله من جهة، ويؤلّه الناس من جهة أخرى. ورابعها أنه لا يفعل حتى أبسط الخيرات، كما قال الله تعالى ﴿وَيَمْنَعُونَ الماعُونَ﴾.. أي أنه لا يُسدي إلى جيرانه أبسط معروف مع أنه لا يكلّفه عناء ومشقة. لقد أخبر الله تعالى من قبل أنه بخيل.. أي أنه لا ينفق على الآخرين من الأشياء الغالية، أما هنا فأخبر أنه لا يعطيهم حتى الرخيص البسيط الذي لا يكلفه عناء ولا خسارة، فمثلا لو استعار منه بعضهم مطرقةً أو منشارًا لبعض الوقت لم يعطه إياه، مع أنه لا يكلفه أي خسارة.

هذه هي العيوب الأربعة التي توجد في المنافقين وضعاف المسلمين، والتي ذُكرت في السورة السابقة. ومقابلَها قد ذكر الله تعالى في سورة الكوثر محاسن المؤمنين، فقال إن المؤمنين – الذين أفضلُهم محمد رسول الله ﷺ– يتحلون بأربعة خصال حميدة، أُولاها: الكوثر، أي أنهم يعطون بسخاء –علمًا أن الكوثر يعني الكثير، كما يعني الإعطاء بسخاء– فعندما أعطى الله نبيّه الكوثر، أعطى الناس أيضا الكوثرَ.. أي بسخاء. والميزة الثانية هي: ﴿فَصَلِّ﴾؛ لقد ذكر الله تعالى في سورة الماعون أن ضعاف المسلمين والمنافقين لا يصلّون بتركيز وخشوع، والآن بيّن أن المرء إذا بلغ مقام الكوثر واظب على الصلوات. والميزة الثالثة هي: ﴿لِرَبِّكَ﴾؛ لقد أخبر الله تعالى في السورة السابقة أن ضعاف الإيمان يصلّون رياءً للناس، فقال الآن مقابل ذلك: ﴿لِرَبِّكَ﴾.. أي أن المؤمن الكامل يصلّي لربّه لا من أجل الآخرين. والميزة الرابعة هي: ﴿وَانْحَرْ﴾؛ لقد أخبر تعالى في السورة السابقة أن ضعاف الإيمان هؤلاء يمنعون الماعون، أي لا يصنعون مع جيرانهم أدنى صنيع، أما الآن فقال مقابل ذلك: ﴿وَانْحَرْ﴾.. أي يا عبديَ المؤمن عليك أن تضحّي وتساعد أمتك بكل طريق.

إذن، فقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة أربعة مساوئ لضعاف الإيمان والمنافقين، ثم ذكر مقابلها في سورة الكوثر أربعة محاسن للمؤمنين، مما جعل تناغمًا لطيفا بين موضوع السورتين.

لقد أُدخلتْ الفاء في قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾، وهنا أيضًا مماثلة بين هذه السورتين، حيث أُدخلت الفاء في قول الله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ في سورة الماعون أيضا، وكما أن الفاء هناك تدل على نتيجة الأمور المذكورة من قبل، كذلك فإن الفاء في قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ هي للنتيجة.. أي أن المرء إذا أُعطيَ الكوثر –أي كانت له صلة متينة بالله تعالى– ازداد دينًا وإيمانًا، تماما كما أن الذي يكذّب بالدين يُحرَم الحسناتِ باستمرار.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

الكوثر: الكثير من كل شيء؛ السيدُ الكثيرُ الخيرِ؛ الرجلُ الكثيرُ العطاءِ والخير؛ نهرٌ في الجنة. (الأقرب)

هذا المعنى الأخير الذي ذكره صاحب "أقرب الموارد" ليس ثابتًا من اللغة، و لم تستعمل العرب لفظ الكوثر بهذا المعنى قبل بعثة النبي ﷺ، بل الواقع أنه عندما استُعمل لفظ الكوثر في القرآن والحديث وفسّره المسلمون أنه نهر يُعطاه النبي ﷺ في الجنة، وراج هذا المعنى بين الناس، فأدخله اللغويون في المعاجم متأثرين بهذه العقيدة، وإلا فالكوثر لا يعني إلا المعاني الثلاثة الأُولى.

هذا المعنى الأخير للكوثر نشأ بتأثير ما ورد في بعض أحاديث الرسول ﷺ الواردة في البخاري ومسلم أيضا، حيث روي أن الرسول ﷺ قال وهو يصف حادث المعراج: "أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ." (البخاري، كتاب التفسير)

وقد ورد هذا الحديث في مسلم بلفظ آخر.

وأما ابن جرير التابعي والمفسر الشهير الذي يقع تفسيره "جامع البيان" في ثلاثين مجلدا فقد أخرج عن أنس رواية تقول: سئل النبي ﷺ عن الكوثر، فقال: "هُوَ نَهْرٌ أعْطانيهِ اللهُ في الجَنَّةِ، تُرَابُهُ مِسْكٌ أبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وأحْلَى مِنَ العَسَلِ، تَرِدُهُ طَيْرٌ أعنَاقُهَا مِثْلُ أعناقِ الجُزُرِ". قال أبو بكر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: "آكِلُها أنْعَمُ مِنْها" .

وقد أخرج الإمام أحمد هذه الرواية في مسنده، غير أنه ذكر أن عمر رضي الله عنه هو الذي سأل هذا السؤال.

وهناك في البخاري✪ رواية عن عائشة -رضي الله عنها- أنها عندما سئلت عن الكوثر، قالت: نهرٌ أُعطيَه نبيّكم ﷺ في الجنة.

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: مَن أراد أن يسمع صوت الكوثر، فليضعْ أصابعه على أذنه، فيسمع صوت الكوثر. وهذه رواية أبي كريب، وهو محدث كبير. (جامع البيان)

يظن الناس أن معنى هذه الرواية أن الصوت الذي يسمعه المرء إذا وضع أصابعه في أذنه هو صوت نهر الكوثر. وهذا غير معقول البتة، لأن الصوت الذي يحدث في الأذن لا علاقة له بالخارج، أما صوت الكوثر فشيء خارجي، فثبت أن هذا المعنى يدل على جهل صاحبه، ولا يمكن أن ينسبه ذو عقل وفهم إلى عائشة رضي الله عنها.

وقد أزعجَ هذا المعنى شرّاحَ الحديث، فقالوا: إنما المراد أن الصوت الذي يحدث في الأذن يشبه صوت الكوثر. (ابن كثير)

وأرى أن ما روته عائشة -رضي الله عنها- صحيح تماما، ولكن الذين فسروه هكذا قد أكدوا جهلهم وغباءهم، لأن هذا المعنى غير مذكور عن عائشة -رضي الله عنها- ولا عن الشرّاح، بل الحق أن المعنى الذي ذكره الشرّاح باطل أيضًا. يجب أن نضع في الاعتبار أن عائشة -رضي الله عنها- لا تقول إنها سمعت هذا من الرسول ﷺ، كما لم تكن هي معه ﷺ عند المعراج حتى ترى الكوثر وتسمع خرير مائه؛ إذ لم تكن زوجة للنبي ﷺ وقتها. وما دام النبي ﷺ قد ذهب للمعراج وحده، وهو الذي رأى الكوثر وسمع صوته، فهو الذي يقدر على وصف صوت الكوثر. لو أن عائشة قالت إن النبي ﷺ هو الذي وصف لها صوت الكوثر لاتفقنا مع هذا المعنى، ولكنها لم تقُل ذلك.

✪ نص الرواية (في البخاري: كتاب التفسير): عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ: سَأَلْتُهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، قَالَتْ: نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ، شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ، آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ. (المترجم)

ثم نقول: إذا كان الكوثر نهرًا، فلا يمكن أن يكون له صوت جديد غريب، بل لا بد أن يكون مشابهًا لأصوات الأنهار في هذا العالم، ولا حاجة لوضع الأصابع في الآذان لسماع صوته؛ فهذا غير معقول.

الحق أن المرء يتكلم في بعض الأحيان كلامًا مجازيًا، ولكن السامع يفسّره على غير ما أُريدَ به. أتذكّر أنني كنت ذات مرة راجعًا إلى البيت بعد أداء الصلاة في أيام الجلسة السنوية، فأعطاني شخص من وسط الزحام عنبًا، فلم أستطع معرفة الرجل. وكان العنب حلوًا جدا، فقلت في البيت: لقد أعطاني ملاكٌ هذا العنب، وكنت أعني أن الله تعالى هو الذي بعث لي هذا العنب عن طريق هذا الإنسان، ولكن بدأ الإخوة يروون فيما بينهم أن ملاكًا حقيقيا قد أعطاني العنب بالفعل، حتى أخذ بعضهم يطالبوني أن أبعث إليهم شيئًا من هذا العنب المبارك إذا بقي منه شيء، فقلت لهم: لقد أعطاني أحد الإخوة العنب، ولكن لم أستطع أن أعرفه لزحام الناس، فقلت إن ملاكا أعطانيه. والقضية نفسها هنا؛ لقد دفع البعضَ غباؤه أن يسأل عائشة -رضي الله عنها- عن صوت الكوثر، فأجابته بلغة الاستعارة: ضَعْ أصابعك في آذانك تسمع صوته؛ وكانت تقصد أنه إذا أغلق المرء آذانه عن مشاغل الدنيا وسمع صوت قلبه..أي صوت الفطرة السليمة.. صوت الإسلام، فقد سمع صوت الكوثر.. أي أصبح أهلاً للوصول إلى الكوثر. ولكن السامعين فهموا من هذه الرواية أن المرء إذا وضع أصابعه في آذانه ليسمع صوتا، فهو سيسمع صوت الكوثر.

إن معنى الكوثر -أي نهر في الجنة- ثابت عن الرسول ﷺ، فلا يمكن إنكار ذلك، فقد ورد في الروايات التي معظمها عن أنس بن مالك وبعضها عن عائشة. إنها أحاديث صحيحة، ولكن هذا لا يعني أن هذه السورة تتحدث عن نفس الكوثر الذي هو نهر في الجنة. لقد سئل النبي ﷺ ما هو الكوثر، فقال: لقد صعدتُ ليلة المعراج حتى رأيت نهرًا، فسألت جبريل ما هذا؟ فقال: هذا الكوثر، فكيف يُستنتج من جوابه ﷺ هذا أنه نفس الكوثر المذكور في سورة الكوثر؟ مع أن نزول سورة الكوثر قد سبق المعراجَ بزمن طويل. لا شك أنها سورة مكية، وحادث المعراج

أيضا وقع في مكة، ولكنها نزلت قبل المعراج بست سنوات أو سبع. لا جرم أن تصوُّر شيء عند ذكر شيءٍ مشابهٍ له أمرٌ طبيعي، ولكن حصرُه في الشيء المشابه له يخالف العقل. كانت في جماعتنا معلّمة، وكانت سيدة مخلصة جدا، واختلّ عقلها، وذات يوم وقع زلزالٌ وهي جالسة في بيتنا على السرير مع جدتي وامرأتين أخريين، فاهتز السرير فقالت جدّتي المرحومة: هذا زلزال، فقالت المعلمة: اجلسي بهدوء، فليس هناك زلزال إنما أُصبتُ بدوخة. فهذه المعلمة كانت تصاب بدوخة أحيانًا، ولكن السرير إذا كان قد اهتزّ نتيجة الزلزال فعلاً، فهذا لا يعني أنه لم يهتز وإنما أصابت هذه المجنونةَ دوخةٌ. والأمر ذاته هنا، لقد رأى النبي ﷺ في المعراج أن في الجنة نهرًا ترابُه مسك وماؤه أبيضُ من اللبن، وأحلى من العسل، واسمه الكوثر، فاستنتج منه الناس أن سورة الكوثر تتحدث عن ذلك النهر نفسه، مع أن الكوثر المذكور في هذه السورة شيء، وكوثر الجنة شيء آخر، ولا يمكن حصر الكوثر المذكور هنا في كوثر الجنة.

إذن، فحتى لو سلّمنا أن هذه السورة أيضا تتحدث عن الكوثر الذي يُعطاه النبي ﷺ في الجنة، فلا يمكن أيضًا حصر معنى الكوثر في نهر الجنة.. أي لا نقول بأن الكوثر يعني ذلك النهر في الجنة فقط، بل نقول بأن النهر الذي يُعطاه الرسول ﷺ في الجنة، إنما هو مثالٌ على الكوثر المذكور في هذه السورة.

لقد بيّن القرآن الكريم مبدأً فيما يتعلق بنعماء الجنة فقال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾(البقرة:٢٦)، وقال تعالى أيضا: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(السجدة:١٨). فترى أن الله تعالى يعلن من جهة أن لا أحد يعلم نعماء الجنة، ومن جهة أخرى يخبر أن المؤمنين سيقولون برؤية نعماء الجنة إنها تشبه ما أوتينا في الدنيا؛ وهو قول يدل على الاحتقار الشديد في الظاهر، فمثلاً إذا زار صديق صديقه فقال له: سأطعمك ثمرة لم تذقها في حياتك، فلن يقول له صديقه – إذا كان من ذوي الأدب واللباقة– لقد أكلتُ ثمرة مثلها من قبل، وإنما يقول إنها ثمرة لذيذة رائعة. فالإنسان لا يقول لصديقه كلامًا غير لائق كهذا، فكيف يُتصور

أن يقول أهل الجنّة ذلك لله تعالى؟ يقول الله عن ثمار الآخرة إنكم لم تروها في الدنيا، فلو قال المؤمنون عند رؤيتها: لقد أكلناها من قبل لأصبح قولهم كذبًا، والكذب محال على أهل الجنة. وعليه فتفسير هذه الآية بالمفهوم الذي تفسَّر به عادةً مستحيلٌ. إن الله تعالى يعلن عن النعم التي يعطاها المؤمنون: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.. مما يعني أن الله تعالى يعتبرها مشابهة لنعم الدنيا من جهة، ومن جهة أخرى يعُدّها مختلفة عنها تماما. فثبت أن الحديث هنا ليس عن النعماء أو الثمار المادية، بل الحق أن النعماء الروحانية التي استمتعوا بها في الدنيا ستتمثل لهم في الآخرة ثمارا وبساتين؛ فعندما يأكل المؤمن في الجنة العنب مثلاً فيقول إنه نفس العنب الذي أوتيته في الدنيا، بمعنى أن المتعة التي كنت أجدها في الصلاة أجدها في هذا العنب، وحينما يُعطَى الشمّام يقول: أجد فيه نفس المتعة التي كنت أجدها في الصوم في الدنيا؛ وهذا يعني أن العبادات التي قام بها في الدنيا تتمثل له في الآخرة على هذا النحو.

ونجد أمثلة على ذلك في الحديث أيضا. قال النبي ﷺ: رأيت مرة أني دخلتُ الجنة، فأتاني الملاك بعنقوديْ عنبٍ وأعطاني إحداهما قائلا: هذا لك، فسألته لمن الآخرُ؟ قال: لأبي جهل. ففزعت من قوله حتى تنبهت من نومي، وقلت: كيف يتساوى عند الله رسولُه وعدوُّه حتى يعطى عنقود من عنب الجنة لرسوله وعنقود آخر لعدوه؟ ثم قُتل أبو جهل في بدر، ثم لما فتحت مكة هرب منها ابنُه عكرمة غيظًا قائلا: لن أعيش في هذه البلدة الآن. فذهبت زوجته وراءه وقالت له: ما هذا الغباء! ارجعْ إلى الوطن، فإن محمدا كريم وقد أحسن معاملتنا بما لا يتأتى إلا مِن رسول مِن عند الله، وقد وعدني أن يعفو عنك إذا رجعت إلى مكة وألاّ يكرهك على اعتناق دينه. فلم يصدّق عكرمةُ أن محمدًا ﷺ -الذي يكنّ له عداءً شديدًا حتى إنه لم يرض بالإقامة في مكة أيضًا- سيعفو عنه بل لن يُكرِهه على تغيير دينه أيضًا، غير أنه رجع مع زوجته إلى النبي ﷺ، وقال له: أصحيح ما تقوله زوجتي بأنك ستعفو عني مع بقائي على ديني لو عشتُ في مكة؟ قال ﷺ: نعم. وكان هذا خلافًا لما يتوقعه عكرمة؛ إذ كان يرى أن من المستحيل أن يعفو محمد عن عدو

لدود مثله، إذ لم يألُ جهدًا في معارضته وإيذائه وتعذيب المؤمنين به وإراقة دمائهم، حتى إنه لم يرضَ بالبقاء في مكة بعد فتحها، وكان أبوه أيضًا قد صبّ على النبي ﷺ فظائع لا نظير لها، فلما سمع قول النبي ﷺ لم يملك نفسه إلا أن قال: إذا كان الأمر هكذا فها إني أعلن أنك رسول الله، لأن هذا التصرف محال إلا من نبي. فقال النبي ﷺ: هذا تأويل رؤياي من قبل، وقد علمتُ الآن أن عنقود العنب الذي أُرسلَ لأبي جهل إنما يعني إيمان ابنه عكرمة. (السيرة الحلبية: فتح مكة)

فانظر كيف أن النبي ﷺ يرى في المنام عنقود عنب الجنة لأبي جهل، ويكون تأويله إيمان ابنه عكرمة رضي الله عنه.

وكذلك رأى النبي ﷺ مرةً أنه قد أُعطيَ إناء لبن، فشرب منه حتى ارتوى، ثم رأى عمر رضي الله عنه فأعطاه ما بقي فشربه، ثم أوّلَ النبيُّ ﷺ اللبنَ أنه العلم، مما يعني أن شرْب اللبن في المنام تأويله علم الدين. (البخاري، كتاب التعبير)

هذه الأمثلة تكشف لنا حقيقة نعماء الجنة، حيث يقول الله تعالى من جهة ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، ومن جهة أخرى يقول ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، فالآية الأُولى تبدو متناقضة مع الآية الثانية. ثم ورد في الحديث عن وصف نعماء الجنة، بأن الله قد أعدّ لعباده الصالحين فيها "ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلبِ بَشرٍ" (البخاري، كتاب التفسير)، وما دامت خفيةً عن الناس لهذه الدرجة فكيف يقال ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾؟ فثبت من هنا أن ما قلتُه هو الصحيح، أي أنهم لا يُعطَوْن في الجنة نعَمًا تشبه نعَم الدنيا، بل المراد أن النعم الروحانية التي كانوا يستمتعون بها في الدينا هي التي ستتمثل لهم في الآخرة فواكهَ شتى، تمامًا كما رأى النبي ﷺ الإيمانَ على صورة عنقود عنب في الرؤيا، والعلمَ الروحاني على صورة اللبن، فإذا أكل الإنسان العنب الروحاني هنالك ازداد إيمانا، وإذا شرب اللبن الروحاني فلن يسبّب له الغازات في الأمعاء، بل سيزيده روحانيةً ومعرفة بالدين. ولقد بيَّنَ سيدنا المسيح الموعود عليه السلام هذا الموضوع في كتابه "فلسفة تعاليم الإسلام" بيانا لطيفا رائعا، فجزاه الله أحسن الجزاء.

باختصار، لقد بيَّنَ القرآن الكريم هنا أن نعم الآخرة كلها تكون تمثلاً للنعماء الروحانية التي نتمتع بها في الدنيا. وقد كشف الله تعالى لنا هذه الحقيقة أيضًا في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن:٤٧)؛ جنة في الدنيا وجنة في الآخرة. لقد كشفت هذه الآية أن الإنسان لن ينال أي نعمة في الآخرة إلا إذا كان قد استمتع بمثلها في الدنيا.

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾(الإسراء:٧٣). ولا يمكن أن يراد هنا أعمى العيون المادية، فهذا ظلم عظيم، إذ كيف يجوز أن يولد أحد كفيفًا أو يصاب بالعمى نتيجة مرض، ثم يُبعَث أعمى في الآخرة أيضا؟ هذا المعنى باطل تمامًا، إنما المراد هنا المصاب بالعمى الروحاني، حيث بيَّنَ الله تعالى أن الذي يظل أعمى روحانيا في هذه الدنيا سيُبعث في الآخرة أيضا أعمى، ولن يحظى بقرب الله تعالى.

لقد ثبت من هذه الآية أيضا أن كل نعمة سينالها المرء في الآخرة، لا بد أن يكون قد نالها في الدنيا أيضا. ولما كانت نعماء الجنة تمثلاً للنعماء الروحانية في الدنيا، فلا بد أن يكون النهر الذي يملكه الرسول ﷺ أيضًا في الآخرة تمثلاً لنعمة روحانية قد نالها في الدنيا. إذا كان إيمان المرء في الدنيا يتمثل له في الآخرة عنبًا، وعلمه الروحاني في الدنيا يتمثل له في الجنة لبنًا، كذلك لا بد من التسليم أن يكون الرسول ﷺ قد أُعطي في هذه الدنيا نعمة يُعطاها في الآخرة على شكل نهر.

باختصار، إذا فسّرنا الكوثر بأنه نهر في الجنة، فلا بد أيضا من القول أن يكون الرسول ﷺ قد نال نعمة عظيمة في الدنيا تتمثل له في الآخرة نهرًا. ولا يجوز حصر معنى الكوثر في نهر، وهذا ما تؤكده آراء الصحابة. فقد ورد في البخاري -وهو أصحّ الكتب بعد كتاب الله- عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه (البخاري، كتاب التفسير). فابن عباس رضي الله عنه أيضا يؤكد المعنى الذي ذكرته آنفا، أي لا بد أن يكون الرسول ﷺ قد أُعطي في الدنيا ما يُعطاه في الآخرة على صورة نهر.

وكذلك ورد في البخاري أن أبا بِشْر قال لسعيد بن جبير -وهو أحد كبار التابعين وعلماء الحديث- إن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة! فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه (البخاري، كتاب التفسير).. أي أنا لا أقول بأن النهر الذي يُعطاه النبي ﷺ في الجنة ليس كوثرًا وُعد به، بل أقول إن الكوثر أنواعٌ، وأحدها ذلك النهر في الجنة.

هذه الرواية أيضا تدعم تفسيري وتبين أنه يمكن تفسير الكوثر بأنه نهر في الجنة، ولكن لا يجوز حصر الكوثر في نهر في الجنة، فإنما ذلك النهر جزء من الكوثر يتمثل في الآخرة.

وورد في البخاري عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير. وقال أبو الفداء ابن كثير: وهذا التفسير يعمّ النهرَ وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهرُ، كما قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحارب بن دِثَار والحسن بن أبي الحسن البصري. حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن، وثواب الآخرة. (ابن كثير)

مما يعني أن للكوثر مفاهيم كثيرة، وحصرها في النهر غير جائز. وقد أكد موقفي هذا الصحابةُ والتابعون أيضا، أو قُلْ: إن تفسيري هذا يتفق مع تفسيرهم الذي سبقوني فيه، وإن كان أسلوب استنتاجهم غير أسلوبي، وأدلتهم غير أدلتي، و لم أرفض أدلتهم، لكني أضفت لها أدلة أخرى كثيرة.

وعن عطاء بن السائب، قال: قال لي محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جُبير في الكوثر؟ قال: قال ابن عباس: هو الخير الكثير. فقال: صدق والله. (جامع البيان)

ولكن روي عن ابن عمر أنه نهرٌ في الجنة. وهذا لا يتنافى مع المعنى السابق -أي الخير الكثير- بل هو مندرج فيه كما بينتُ من قبل، ومثاله قولك: عند فلان مال كثير، وعنده ساعة أيضا، فقولك عنده ساعة أيضا، لا ينفي كونه ذا مال كثير، بل يعني أن الساعة من ضمن ماله الكثير. فالنهر الذي يعطاه النبي ﷺ في الجنة خاصةً هو ضمن مفاهيم الكوثر التي بينتُها.. أي هو أيضا كوثر. وشتان بين أن تقول: هذا هو الكوثر، وبين أن تقول: هذا أيضا كوثر. فلو قلنا مثلاً: هذا الدينار لزيد،

فلا يعني ذلك أنه هو الدينار الوحيد في العالم، ولا يوجد فيه دينار آخر، كذلك قد وُهب النبي ﷺ أنواعا كثيرة من الكوثر إضافةً إلى النهر الذي يُعطاه بحسب هذه النبوءة.

باختصار، لا داعي لتضييق المعاني الواسعة لهذه الآية القرآنية وخاصة وأن هذا المعنى -أي الخير الكثير- لا يتنافى مع مفهوم هذه الرواية، إذ إنها تذكر معنى النهر على سبيل المثال لا الحصر.

وهنا لا بد من الرد على سؤال هام وهو: إذا كان للكوثر مفاهيم أخرى غير النهر في الجنة، فلماذا لم يذكرها النبي ﷺ؟

والجواب: لم يثبت من النبي ﷺ أنه قد بيَّنَ كل تفسير القرآن ومفاهيمه، وإنما قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف (أي أوجه) (البخاري، كتاب فضائل القرآن)، ولكل وجه سبعة مفاهيم، مما يعني أن لكل آية ٤٩ مفهوما على الأقل، ولما كان النبي ﷺ قد ذكر أحد مفاهيم الكوثر -وهو نهر في الجنة- فأين بقية مفاهيمه الـ٤٨ يا ترى؟ لقد روي عن النبي ﷺ معنى واحد للكوثر، فلا يزال عندنا مجال لبيان ٤٨ مفهوما باقيًا. ولو اكتفينا بوجه واحد لهذه الآية فأين الستة المفاهيم الباقية لهذا الوجه؟ هذا يعني أنه لا يزال عندنا فرصة بيان ستة مفاهيم أخرى للكوثر.

أما السؤال: لماذا بيّن الرسول ﷺ مفهوما واحدا فقط؟ فالجواب: أن معاني القرآن الكريم تنكشف بالتدبر والاستنباط. لقد أخبر الله تعالى أنه إذا أشكل على الناس معنى آيةٍ، فلا يتوصل إلى المعنى الصحيح لها إلا الراسخون في العلم (آل عمران، الآية ٨)، فثبت من هنا أن معاني القرآن الكريم تنكشف بالتدبر وإمعان النظر. كان هناك مفهوم لآية الكوثر ما كان لينكشف على الناس بالتدبر، وهو معنى نهر في الجنة، إذ كان من المستحيل أن يبينه إلا مَن رأى الجنة أو تلقَّى الوحيَ بهذا الشأن، فبيّن النبي ﷺ هذا المعنى الخفي، أما المعاني الأخرى للكوثر فانكشافها بالتدبر كان ممكنًا، فما كانت هناك حاجة لذكرها خاصة. من الواضح أنه ما من أحد سوى النبي ﷺ ذهب إلى الجنة -في المعراج- ورأى النهر الذي قيل له ﷺ أنه

أُعطيَه هناك، فما كان لأحد سواه ﷺ أن يبين ذلك المعنى للكوثر الذي هو ذو علاقة بذلك النهر.

والآن أسوق أدلتي على أنه لا يمكن حصر الكوثر في نهر في الجنة.

أولاً: هو ما ذكرتُه مرارا بأن القاعدة في ألفاظ القرآن الكريم أن يؤخذ بكل المعاني المختلفة للّفظ الوارد في آية، إلا ما أبطله الله تعالى في الآية نفسها أو في آيات أخرى. فلو كان معنى الكوثر الذي ذكره ابن عباس والعالم الكبير سعيد بن جبير والوليُّ الحسنُ البصري والمحدّثان الكبيران مجاهد ومحارب وعكرمة خاطئًا، لأبطله الله في هذه الآية أو في آية أخرى، وما دام الأمر ليس كذلك، فثبت أن الله تعالى لم يُرد حصر الكوثر في نهر في الجنة.

ثانيًا: أن الله تعالى يقول هنا ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، وقد أمر الله نبيه ﷺ بهذه الأمور الثلاثة نتيجةً لإعطائه الكوثر، لأن الفاء هنا للتعقيب والنتيجة، وهو كقولنا مثلاً: تزوّجَ فرُزِقَ ابنًا.. أي أن ولادة الابن عنده كانت نتيجة الزواج، أو هو كقولنا: ذهبتُ إلى بيته فسألتُه، فسؤالك إياه نتيجة لذهابك إلى بيته؛ كذلك فقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ هو نتيجة لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، إذًا المعنى: لقد أعطيناك الكوثر فعليك الآن أن تصلّي وتقدِّم الأضحية ولسوف يصبح عدوك هو الأبتر. أما القول بأن المراد هو: أننا أعطيناك نهرًا في الجنة، لذلك ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، فهو قول لا ينسجم مع السياق، لأنه يماثل القول: فلان تزوج فوقع زلزال في المدينة، إذ سيقول الجميع: ما علاقة الزلزال بالزواج؟ فالصلاة والتضحية وكون العدو أبتر، لا يمكن أن يكون نتيجة لإعطاء الله نبيَّه نهرًا في الجنة. لو كان الأمر هكذا لكانت هناك رواية تقول مثلاً: لقد صلّى النبي ﷺ ركعتي نفلٍ في يوم كذا، أو نحَر جملاً، أو مات أبناء عدو له فصار أبتر، بسبب أن الله تعالى قد أعطاه ﷺ نهرًا في الجنة. كلا، لا توجد رواية كهذه أبدًا. إن تفسير هاتين الآيتين بأننا أعطيناك خيرا كثيرا، فلذلك صلّ وانحر، فهو أمرٌ يمكننا أن نثبته من عمل الرسول ﷺ. أما الذي يقول بأن معنى الكوثر هنا؛ نهر في الجنة، فلا بد له أن يثبت أن النبي ﷺ صلىّ

ركعتي نفلٍ في يوم كذا شكرًا على ذلك النهر في الجنة، أو نَحَر جملاً، أو مات أبناء عدو له فصار أبتر، وإذا لم يثبت ذلك فهذا يعني أن الرسول ﷺ قد خالف أمر الله تعالى -والعياذ بالله- إذ أمره الله أن يصلي وينحر شكرًا على تلك المنّة، ولكنه لم يأتمر بأمره ﷻ. هذا يتنافى مع عظمة الرسول ﷺ. ثم يجب أن تكون هناك رواية تقول بأن الرسول ﷺ قال إن الله تعالى قد أعطاني نهرًا في الجنة، وسيكون نتيجة ذلك أن أبناء فلان من الأعداء سيموتون، فيصبح أبترَ، أما أنا فيعطيني الله ابنًا يعيش؛ ولكن ليس هنالك أي رواية كهذه أيضا.

باختصار، لو فسرنا الكوثر بمعنى النهر في الجنة فقط، فلا يبقى هناك انسجام بين هذا المعنى والأمور المذكورة في الآية.

ولو قيل أن الله تعالى أمَره ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ شكرًا على ما خوله من نهر في الجنة، فالسؤال: هل كان هذا النهر نعمة عظيمة حتى يأمره الله تعالى بالشكر عليه؟ كلا، بل إن نعمة القرآن الكريم ونعمة لقاء الله أعظمُ من نهر، فكيف يعقل أن لا يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصلاة والنحر شكرًا عليهما، بينما يأمره بشكره على نهر؟ يجب أن نرى ما هو المقدَّم والأفضل عند الله تعالى. نقرأ في الروايات أنه لما حانت وفاة الرسول ﷺ كان رأسه مستندا إلى حجر عائشة -رضي الله عنها- حيث كانت تسنده لكي يتنفس بسهولة (البخاري، كتاب المرضى). وتقول عائشة رضي الله عنها أنها كانت تظن من قبل أن الآثمين هم الذين يلفظون أنفاسهم بعناء شديد، ولكني حينما رأيت معاناة الرسول ﷺ عند النزع لمتُ نفسي كثيرًا وأدركت أن لا علاقة بين المعاناة عند الموت وبين الإيمان (البخاري، كتاب المغازي)، وتخبر عائشة أن النبي ﷺ تُوفّي وهو يردّد: إلى الرفيق الأعلى، إلى الرفيق الأعلى.. أي أني ذاهب إلى الله رفيقي الأعلى. إنه ﷺ لم يقل في تلك الساعة: إني ذاهب إلى الكوثر، مما يعني أنه لم يتمنّ عند الوفاة إلا لقاء الله تعالى، ومع ذلك لم يأمره الله تعالى بالصلاة والنحر شكرًا على نعمة لقائه، بينما أمره بذلك على إعطائه نهرا في الجنة كما يزعمون! هل كان هناك خطر أن يُسلب هذا النهر منه حتى يأمره الله تعالى بالصلاة والدعاء وتقديم التضحيات؟ أم هل كان النهر في الجنة

أعظم من النعم الروحانية التي أُعطيَها النبي ﷺ حتى يأمره الله تعالى بالصلاة وتقديم الأضحية شكرًا عليها؟

لقد أعطى الله نبيَّنا ﷺ نعمًا عظيمة كالقرآن وختم النبوة وسيادة الأنبياء كلهم التي لا يساوي أمامها نهر في الجنة شيئًا، ومع ذلك يظن المفسرون أن الله تعالى أمره بصلاة النوافل شكرًا على هذا النهر! مع أن نوافل الشكر إنما تؤدى على النعم العظيمة لا الصغيرة. كل هذا يؤكد أن الآية لا تعني أن يصلي النبي ﷺ ويضحّي شكرًا على نهر في الجنة، بل أمره الله تعالى بهذا ليتفادى العقبات التي سيواجهها نتيجة حصوله على الكوثر. الواقع أن النبي ﷺ ما كان ليواجه العقبات إلا في طريق حصوله على الكوثر المقدّر له في هذه الدنيا، إذ كان بإمكان البشر أو الشيطان أن يسعى لمنعه من الحصول عليه. أما الكوثر الذي هو في الآخرة فلا يمكن للشيطان ولا للبشر أن يعيق طريقه في حصوله عليه. فلأن هذا الكوثر كان مقدرا له ﷺ في هذه الدنيا، فقال الله تعالى له: سوف نخوّلك نعمًا عظمى، ومن حاز نعمًا عظمى عاداه الناس وحسدوه لتُنزَع منه. وبالفعل نرى في الدنيا أنه إذا تقلَّد أحدٌ منصبًا مرموقًا، حسده الناس وماتوا كمدًا منه، ومن أجل ذلك قال الله تعالى لنبيه: سنعطيك نعمًا عظيمة لم يُعطَها أحد منذ آدم، ولن يعطاها أحد إلى يوم القيامة، وسوف يحسدك الناس عليها وسيضعون في طريقك عراقيل كبرى، ولكننا سندلّك على ما تبدّد به هذه العقبات لتخرج ناجحًا في نهاية المطاف، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

وكذلك لا علاقة لقوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ بنهر في الجنة، بل هو ذو صلة بكوثر ناله النبي ﷺ في هذه الدنيا؛ إذ لو كان هذا الكوثر أُخرويًا فلن يُعرف أن عدوَّه أبتر إلا في الآخرة؛ إذ كيف يقتنع العدو بقولنا: لأن محمدا ﷺ سيعطى الكوثر في الآخرة، لذلك سوف يتبين هنالك أن عدوه هو الأبتر. إن قوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ يدل صراحة أن العدو سيكون أبترَ في هذه الدنيا، وبالتالي لا بد أن ينال النبي ﷺ الكوثر في هذه الدنيا نفسها؛ إذ كيف يمكن أن يحسد أبو جهل النبيَّ ﷺ لشيء لم يتيسر له في الدنيا؟ فلو قال النبي ﷺ لأبي جهل: سوف

أجد نهرًا في الجنة، لَرَدَّ عليه: إني لا أؤمن بالجنة، فلماذا أحسدك على الكوثر هناك؟ الحق أن الحسد إنما يكون في الدنيا على النعم التي ينالها المرء هنا؛ وهذا هو المراد هنا؛ إذ يعلن الله تعالى لرسوله بأننا سنعطيك ما يجعل العدو يحترق حسدا وكمدا، غير أننا نخبرك أن علاج حسد العدو هو الآتي: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، فإذا فعلت ذلك حُميتَ من حسده، ولم تزل تتقدم باستمرار تحت رحمتنا وفضلنا.

الواقع أن من المحال للبشر أن يقدّروا الخير الكثير الذي أُعطيه النبي ﷺ؛ ذلك أن الله تعالى يسمي هذا الخير الكثير كوثرًا، بمعنى أنه أكثرُ من الكثير جدا؛ فأنى للإنسان أن يقدره؟ الحق أن تفسير الكوثر محال بيانًا وكتابةً، إنما الله تعالى وحده الذي يستطيع بيانه، بيد أننا نستطيع أن نضرب بعض الأمثلة تقريبًا لمفهوم الكوثر إلى الأذهان، وهذا ما سنحاوله لاحقًا.

التفسير: لقد بدأ الله تعالى هذه السورة بقوله ﴿إِنّا﴾، و(إنّ) حرف توكيد، أما (نا) فضمير متكلم للجمع، والسؤال هنا: لماذا استخدم الله تعالى هنا أولاً (إنّ)، ثم لماذا استخدم ضمير الجمع للمتكلم مع أنه واحد لا شريك له، فقال: ﴿إِنّا﴾ بدل (إني). ما الحكمة في ذلك؟

والجواب أن النعمة التي وعد الله رسولَه بها لنعمةٌ عظيمة، وبرؤية حالة النبي ﷺ في أوائل دعوته كان الناس يستبعدون أن ينال تلك النعمة العظمى، فاستخدم الله تعالى أولاً حرف "إنّ" تأكيدًا على تحقُّق هذا الوعد. كان النبي ﷺ في بداية الدعوة خامل الذكر ضئيل الشأن، ولم يؤمن به عندها إلا عشرة أو اثنا عشر شخصًا، فقال الله تعالى له: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، وكان الجميع يقولون في استغراب: ما هذا الذي يدَّعي به؟ وكيف يحققه؟ فلذلك أكَّد الله هذا الوعد باستخدام أداة التوكيد (إنّ) أولاً، كما استخدم فعل الماضي ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ تأكيدًا ثانيًا، لأن الماضي مكان المضارع يفيد التأكيد؛ فكأنه تعالى يقول: لقد أعطيناك ما وعدناك به. وهذا الأسلوب موجود عندنا أيضا، فعندما يذهب أحد إلى قريبه ويخطب ابنته لابنه يقول له هذا حينًا: حسنًا، سنزوِّجها ابنَك، وحينًا يجيبه: قد زوّجناها ابنك، مع

أن الزواج يتم فيما بعد. إنه يستخدم صيغة الماضي إعلامًا منه أن هذا الزواج قد صار أمرًا يقينيا قطعيا. وإضافةً إلى هذين التوكيدين: أعني استعمال حرف (إنّ) وفعْل الماضي في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْناكَ﴾ نجد أن هذا الوعد الرباني يزداد تأكيدًا على تأكيد حين نرى أن الذي قطع هذا الوعد هو الله ﷻ؛ إذ هو قادر يقينًا على تحقيق ما يعد، فلا مجال للقول أن الوعد كان قطعيًا ولكنه لم يتحقق لبعض العوائق.

أما السؤال: لماذا استعمل الله تعالى هنا ضمير الجمع للمتكلم مع أنه واحد لا شريك له؟ فجوابه أن الله تعالى قد استخدم صيغة الجمع للإشارة إلى أن وعده هذا متعدد الجوانب والمفاهيم، وإلى أنه سينصر رسوله ﷺ بنفسه وبملائكته وبقوانينه الطبيعية، ذلك أن من أساليب القرآن أن الله تعالى يستخدم صيغة الجمع إذا وعد رسولَه وعدًا يشترك معه في تحقيقه ملائكته ونواميسه الطبيعية للدلالة على سعة الوعد وتنوُّعه، وكأنه يقول: لقد أمرت ملائكتي ونواميسي لتحقيق هذا الوعد، فنحن جميعا سنحققه.

ولو قيل هنا: هل قدرة الملائكة وقدرة نواميس الطبيعة منفصلة عن قدرة الله تعالى حتى يستخدم صيغة الجمع للدلالة على أنهم كلهم سيعملون على تحقيق هذا الوعد؟ فملائكة الله ونواميسه لا تضيف إلى قدرته تعالى شيئا، إنما تستمدّ قوّتها منه تعالى. فلماذا استُعملت صيغة الجمع؟

الجواب الأول: لا شك أن ملائكة الله وقوانينه الطبيعية لا تضيف إلى قدرة الله تعالى شيئا، فهو الذي خلقها، وهي تابعة له ولا تعمل أي شيء مباشرة، بل تعمل بإذنه؛ فإذا كان من النواميس الطبيعية أن الماء يُغرق ويُطفئ النار، فالله تعالى هو الذي جعل الماء يُغرق ويُطفئ، ولا يزيد الماء في قدرة الله شيئا؛ وهو الذي جعل النار تحرق أو تُنضج الطعام، ولا تزيد النار في قدرته تعالى شيئا. غير أن الناس أنواع، ورسالةُ القرآن موجّهة إلى الجميع، فمنهم مَن يؤمن بالله تعالى ولكن لا يؤمن بالملائكة، ومنهم مَن يؤمن بالله وبالملائكة أيضا، ولكن لا يؤمن بأن محمدا رسولُ الله أو أنه مؤيد من ملائكة الله، ومنهم من لا يؤمن بالله ولا ملائكته، ولكنه يسلّم بالقوانين الطبيعية. فلأن الله تعالى يريد أن يؤكد مضمون هذه الآية بشكل

خاص، فاتّبع هنا أسلوبًا يطمئنّ به كل هؤلاء الناس ذوي الميول المختلفة؛ فأما الذين يؤمنون بالله تعالى وبأن الافتراء عليه إثم عظيم، ولا يفتري عليه مَن عنده صلاح وحياء، فقد نبّههم الله تعالى هنا بأنكم ترون أن محمدًا يقوم بهذه الدعوى مستشهدًا بالله تعالى؛ أما الذين هُمْ أكثرُ تمسكًا بالأدلّة الأخلاقية بدلاً من الله تعالى، فضَمَّ مِن أجل اطمئنانهم الملائكةَ مع اسمه تعالى، فنبّههم أن صوت ضميرهم الذي تحرّكه الملائكة يؤيد دعوى محمد ﷺ، أما الذين ينكرون الله تعالى والملائكة فضمَّ مِن أجل اطمئنانهم النواميسَ الطبيعية، ليبين أنها هي الأخرى تؤكد أن محمدًا سينال بركات كثيرة. إذن، فتأكيدًا على تحقُّق وعده هذا قد ذكَر الله تعالى هؤلاء الشهود الثلاثة معًا، ولذلك استعمل صيغة الجمع ﴿إِنَّا﴾ بدل "إني".

وهنا ينشأ سؤال آخر وهو: إذا كان هذا الوعد سيتحقق مستقبلاً، فما هو الأمر الجديد الذي تولّدَ بذكر هؤلاء الشهود الثلاثة والذي يُقنِع المنكرَ -ولو إلى حد ما- بأن هذا الوعد سيتحقق حتمًا؟

الجواب: هو أنني قد قلت آنفًا بأن الإنسان الصالح غير المخادع، والعاقل غير المجنون، والقانع غير الطامع، والمنطقي الذي لا يؤمن بعقيدة غير منطقية؛ هذا الإنسان إذا أعلن دعواه في كامل عقله ووعيه بأن الله تعالى هو الذي قد أمَره بهذا، فقوله هذا يكفي دليلا عظيما على صدق دعواه لمن كان يؤمن بالله تعالى؛ فإن أبا بكر وخديجة وعليًّا وزيدًا -رضوان الله عليهم أجمعين- قد آمنوا بالرسول ﷺ بمجرد سماع دعواه دون أن يطالبوه بأي دليل. بل كان هناك آخرون أيضًا ممن انتفعوا بهذا الدليل وحده، فمثلاً؛ جاء إلى النبيّ ﷺ في المدينة أعرابي من أصحاب الطبائع السليمة بعد سماع دعواه وقال له ﷺ: هل تستطيع أن تُقسِم بالله تعالى بأنه هو الذي بعثك؟ فقال ﷺ: نعمْ، أُقسِمُ بالله العظيم أنه هو الذي بعثني، فما لبث الأعرابي أن آمنَ. إذن، فإذا كان هناك شخص بهذه الخصال المذكورة أعلاه، وادعى بأنه من عند الله تعالى، أو قال بأن الله قد وعدني بكذا، فهذا الدليل وحده يكفي المؤمنَ بالدين لمعرفة صدقه؛ لأن فطرته السليمة ترفض أن يقوم شخص موصوف بهذه الخصال بدعوى كاذبة أو خاطئة. وكما قلت من قبل كان هذا الدليل متوفرا للنبي ﷺ.

غير أن هناك أُناسًا لا يكونون بدرجة أصحاب الفطرة السليمة، فهم يريدون المزيد من الأدلة الروحانية، ويوفّر الله تعالى هذا الدليلَ الروحاني بإلقاءِ حُبّ مبعوثه في قلوب الكثير من أهل الصلاح من الطراز الأول في زمنه، فيؤمنون به، أو يؤمن به برؤية بعض الآيات والشواهد آخرون لا يكونون معروفين بالصلاح من قبل، إلا أنهم يتغيرون بعد الإيمان به رأسًا على عقب كأنهم ملائكة يمشون على الأرض، فلا يجد ذوو العقل السليم مناصًا من الاعتراف أن تحوُّل هؤلاء إلى ملائكةٍ يمشون على الأرض دليلٌ ساطع على أن هذا المدعي مؤيد بتأييد الملائكة التي تترك تأثيراتها الملائكية على هؤلاء. وهذا الدليل أيضًا كان متوفرًا للنبي ﷺ. فقد كان أبو بكر رضي الله عنه ملاكًا عند أهل مكة قبل إيمانه بالرسول ﷺ (السيرة النبوية لابن هشام: إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه)، غير أن الكثير من الآخرين الذين كانوا قد بلغوا المنتهى في سوء الأعمال والفساد والظلم، قد تغيّروا تمامًا لما أيقنوا بصدق النبي ﷺ، وصاروا بين عشيّةٍ وضحاها عابدين زاهدين متقين متواضعين حليمي الطبع رحماء كرماء أوفياء صادقين محسنين إلى خلق الله. ولا شك أن هذا كان دليلا على صدق النبي ﷺ وعلى أن معه ملائكة الله التي تلقي عليهم تأثيراتها الطيبة وتحوّلهم ملائكةً يمشون على الأرض.

والدليل الثالث الذي ذكره الله تعالى هنا أن نواميس الطبيعة أيضا ستؤيد محمدًا ﷺ، وقد ظهر هذا الدليل أيما ظهور. فتعاليم النبي ﷺ تتفق مع نواميس الطبيعة، وتتضمن حقائق أزلية لا مناص للفطرة السليمة من تصديقها. إنها تعاليم منزهة عن الأوهام والخرافات، قد امتزج فيها المنطق الخالص مع الروحانية الخالصة امتزاجا بحيث إنها تدخل شغاف قلب المرء إذا نزع عصابة التعصب عن عينيه. وقد رأى أهل مكة أمثلةً عديدة على ذلك؛ ومنها ما حصل مع عمر رضي الله عنه، فقد خرج بنيّة قتل النبي ﷺ، ولكن سيف صدق النبي ﷺ قتله، حيث حضر إليه ﷺ نادمًا باكيًا على تقصيراته وذنوبه (السيرة النبوية لابن هشام: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه).

إذن، فمع أن هذا الوعد كان سيراه الناس في المستقبل، إلا أنه كانت أمام أهل مكة لدى نزول هذه السورة براهين تدل على أن الله تعالى يؤيد النبي ﷺ، وأن ملائكته تنصره، وأن نواميس الطبيعة تدعمه، ولذلك استخدم الله تعالى هنا صيغ الجمع للمتكلم ليقول: إني وملائكتي ونواميس الطبيعة كلنا سوف نعطيه كوثرًا؛ فإذا كنتم لا تستطيعون سماع صوتي، أفلا تسمعون صوت الملائكة أيضا؟ وإذا كنتم لا تستطيعون سماع صوت الملائكة، أفلا ترون أن أديان العالم كلها تعتقد عقائد خرافية لا يقبلها العقل وتعمل أعمالاً تتنافى مع الفطرة، أما عقائد هذا المدعي فليس فيها ما هو خرافي غير منطقي، وليس في أحكامه ما يتنافى مع الفطرة؛ فلماذا لا تدركون من هنا أن ديار أعدائه ستخرب، وأن معابدهم ستنهار، وأنهم سيخرّون عند قدميه طوعًا أو كرها في نهاية المطاف، وأن العاقبة له. اعلموا أني وملائكتي والنواميس الطبيعية كلنا سنعطيه كوثرا.. أي ازدهارا ورفعة وعظمة لم ولن يعطها أحد من العالمين.

والجواب الثاني هو أن من عادة الملوك الكلام بضمير الجمع، فاتّبع القرآن الكريم هذا الأسلوب الملَكي، فحيثما أراد التركيز على ملكوت الله تعالى استخدم له صيغة الجمع. والمِلِكُ يتكلم بصيغة الجمع إعلامًا منه أنه ليس وحيدا، بل معه أعوانه وأتباعه الذين يقولون ما يقوله وسينفذون أمره، وقد تكلم الله تعالى في القرآن الكريم بصيغة الجمع بهذا المعنى أحيانا.

ثم إن الكُتّاب أيضًا يستخدمون صيغة الجمع أحيانًا، ويعنون بذلك أنهم ليسوا وحدهم الذين يحملون هذا الرأي، بل هناك آخرون يوافقونهم الرأي.

إذن، فهذا تعبير شائع في العالم. والعقل يعتبر الجماعةَ أقوى من الفرد، ولذلك قد استخدم الله تعالى صيغة الجمع دائمًا حيثما أراد التركيز على قدرته وقوته، ليبين للناس أنه واحد بلا شك، ولكنه أشدُّ قوةً من الجماعات. وإن الله تعالى قد وعد رسوله ﷺ هنا وعدًا عظيما، ولذلك قال هنا إننا نعلن بصفتنا "مالِك المُلْك" بأن جميع القوى سوف تعمل على إنجاز هذا الوعد وسوف يتحقق يقينا.

وأبيّن الآن المفاهيم التي تدل عليها كلمة الكوثر.

بحسب ما تقدم من شرح، فإن كلمة الكوثر تشير إلى كل الأمور التي لها علاقة بنبوة الرسول ﷺ، حيث أعلن الله تعالى أنه قد أعطاه الكوثر من كمالات النبوة كلها أو من كل ما هو وثيق الصلة بها. لو فسِّر الكوثر بمعنى أنه ﷺ قد فاق الآخرين في كمال واحد لما كان هذا نعمةً تُذكر، وليس في ذلك أية خصوصية للنبي ﷺ، لأن تفوُّق البعض على البعض في كمال معيَّن أمرٌ عادي، ولا يمكن أن يُسمى كوثرًا، فكل نبي يفضَّل على غيره في بعض المجالات. وعلى سبيل المثال، إذا كان في القرية خمسون أو ستون شخصًا، فلا بد أن يكون كل واحد منهم يفضَّل على غيره في مجال معين؛ فإذا كان عشرة منهم يملكون الأراضي، فأحدهم يملك أراضي أكثرَ من غيره، وهكذا فهو أفضل من هؤلاء في هذا المجال المعين، أما البنّاء منهم فيفضَّل على جميع أصحاب الأراضي، إذ لا يعرفون فن البناء، أما النجّار فيفضَّل على البنّاء والمزارعين؛ إذ يجهلون النِجارة، أما الحدّاد فيفضل على هؤلاء جميعًا، إذ لا خبرة لهم بالحدادة، أما السقّاء فيفضل على غيره لخبرته في السقاية، والحال نفسه بالنسبة إلى الغسّال والعطّار وغيرهما. فكل إنسان يفضَّل على غيره بشكل أو بآخر، ويتميز بميزة لا توجد في غيره، فهذا سمين وذلك رشيق، وهذا طويل وذلك قصير، وهذا عالم وذلك جاهل. إن تفوُّق أحد على غيره في مجال معين نعمة ربانية بلا شك، ولكنها لا تجعله أفضل من الجميع. ولما كانت هذه الآية قد جاءت لتؤكّد فضل الرسول ﷺ على الأنبياء كافةً من دون حصر تفضيله في مجال معين، فلا بد من القول بأن الله تعالى قد أعلن هنا أنه قد أعطاه الكوثر في جميع كمالات النبوة، فلا يباريه نبيّ في أي منها. اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وبارك، إنك حميد مجيد.

لقد ذكرتُ من قبل أن من معاني الكوثر: الخير الكثير، ولفظ "الخير" اسمُ تفضيل، أي أنه يدل على التفوّق على الآخرين؛ مما يعني أن هذه الآية لا تتحدث عن الأمور المادية، إذ ليس هنالك تاريخ محفوظ يُعرف به من هو الأفضل من غيره في الأمور المادية، بل إن تاريخ النِّعم الروحانية والسماوية هو المحفوظ فقط. وهذه

الآية تعقد المقارنة بين النبي ﷺ وغيره من الأنبياء، فلا بد أن يكون الحديث فيها عن الأمور التي يمكن المقارنة فيها، وليست هذه الأمور إلا أمور النبوة والدين.

ومن معاني الخير: وجدانُ الشيء بجميع كمالاته اللائقة (الأقرب)، أي وجود هذا الشيء في أحدٍ مع جميع كمالاته الضرورية التي بسببها أُطلقَ هذا الاسم عليه؛ فمثلاً لو قلتَ: وجدتُ الشمّام الخير، فهذا يعني أنه يوجد فيه كل ما هو ضروري وجودُه في الشمّام؛ وإذا قيل: أن النبي وجد النبوةَ الخيرَ، فمعناه أن كل الكمالات التي هي ضرورية للنبوة توجد فيه ﷺ في أروع شكل.

كذلك قد ورد في القاموس عن تعريف الخير: "وقيل: حصولُ الشيء بما مِن شأنه أن يكون حاصلاً له".. أي أن الخير عند أئمة اللغة هو: وجود الشيء في أحد مع كل ميزاته الذاتية. إذن، فلفظ الخير يشير إلى عظمة الشيء وكذلك إلى سعته؛ فإذا قيل: أنه ﷺ أعطيَ خيرَ نبوةٍ، فمعناه أنه مُتَحَلٍّ بجميع الكمالات الضرورية للنبوة وبأروع صورة، وأنه منزّه عن جميع النقائص التي تتنافى مع النبوة. ولأن لفظ الكوثر يشتمل على معنيين: الخير، والكثير منه، فيكون المراد أن النبي ﷺ قد نال النبوة بجميع كمالاتها، كما حاز كل كمال منها بأروع صورة؛ وبتعبير آخر: إن النبوة التي حازها النبي ﷺ هي الأفضلُ كَمًّا وكَيفًا.. أي أنّ كمالات النبوة التي قد حازها النبي ﷺ هي أفضل درجةً وأكثر عددًا من كمالات الأنبياء الآخرين.

والحق أن التدبر يكشف لنا أن لفظ "الكوثر" يشير إلى ختم النبوة في الحقيقة. إن المرء ليستغرب حقًا حين يرى أن الصحابة كانوا يؤمنون بأن النبي ﷺ هو النبي الكامل والموعود الأخير، مع أن لفظ خاتم النبيين لم يرِدْ في حقه إلا في سورة الأحزاب التي لم تنزل إلا في السنة السادسة بعد الهجرة؛ فكيف علِم الصحابة سلفًا ما كشفه الله عليهم في أواخر فترة البعثة يا ترى؟ وكيف علِم النبي ﷺ أيضا بذلك سلفا؟ ولكن لا تبقى أية غرابة بعد قراءة هذه السورة، فإنها قد نزلت في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة، وهي تعلن ختم النبوة على النبي ﷺ.. بمعنى أنه قد حاز كمالات النبوة بأكمل شكل وأكبر قدر، والبديهي أن مَن نال مثل هذه النبوة فلا بد أن يكون خاتم النبيين وأفضلَهم، ولذلك نجد أنه لما نزلت سورة

الأحزاب التي أُعطيَ فيها النبي ﷺ لقب خاتم النبيين، لم تقعْ أيةُ ضجة بين الصحابة، ذلك أن هذا اللقب لم يكن بشيء جديد عندهم. لو كان أمرًا جديدا لثارت بينهم ضجّة، ولكن التاريخ يخبر أنه لم يحدث ذلك قط، مما يعني أن النبي ﷺ وصحابته كانوا يعتبرونه خاتم النبيين سلفًا. فالحق أنه عندما نزلت سورة الكوثر أدرك الصحابة أنه ﷺ خاتم النبيين وأفضلهم.

ومن معاني الكوثر: الرجلُ الكثيرُ العطاء والخير، وعليه فإن الله تعالى قد وعد نبيّه ﷺ في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْناكَ الكَوْثَرَ﴾ أنه سيهب له رجلا كثير العطاء والخير. وليس معنى ذلك إلا أنه سيولد بين أتباعه مَن يكون كثير العطاء والخير.

وأتناول الآن هذه المعاني المختلفة واحدًا بعد الآخر بالتفصيل:

المعنى الأول: إحراز النبي ﷺ كمالات النبوة بأفضل وجه وأكبر قدر. وهذا الموضوع واسع سعةً لا نهاية لها، ولا أحد يحيط به علمًا وبيانًا إلا الله ﷻ. ولكن أولاً وقبل كل شيء يجب أن نرى نوعية دعوى النبي ﷺ، إذ لا بد لمعرفة محاسن المرء مِن معرفة نوعية دعواه؛ فمثلا لو جاءنا أحد وقال أنا أفضل المعلّمين، فعلينا أن نرى أتتوافر فيه شروط المعلم ومزاياه أم لا؟ فإذا حاز تلك الميزات أفضلَ من غيره اعترفْنا بأنه أفضل المعلّمين. ولكن إذا ادعى أحد أنه أفضل المعلّمين، ولما سئل عن المزايا التي يتحلى بها، قال: إني أُكثر من أكل البيض أو من الرياضة واللعب مثلاً، فلا بد أن يضحك عليه الجميع ويعتبروه جاهلا أحمق. أما إذا ادعى أحد أنه أقوى مصارع، ولو سئل عن عمله وميزته قال: أنا أكثر أكلاً للطعام وحملاً للأثقال وأكثرَ رياضةً وأبرعَ في الألعاب البهلوانية، فسوف نصدقه، أما لو قلنا له: أتعرف فلسفة "كانط" مثلا، لردَّ علينا: ما لي ولِكانط، وما للمصارعة والفلسفة؟ فإني لم أدَّعِ أنني فيلسوف، بل ادعيت أني مصارع كبير. كذلك فإن النبي ﷺ حين ادعى أنه أفضل من الجميع، فيجب أن نرى نوعية دعواه، ونرى مَن الذين تشبه دعواهم دعواه حتى تسهل علينا المقارنة بينه وبين غيره، ونعرف ما إذا كان صادقًا فيما ادعى أم لا.

والتدبر يكشف لنا أنّ دعوى النبي ﷺ مذكورة في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا﴾(المزمل:١٦). فأنبياء السلسلة الموسوية هم أشهرُ أنبياء العالم -لا شك أننا، نحن المسلمين الأحمديين، نؤمن بنبوة كرشنا ورام تشندر عليهما السلام، وذلك على عكس اعتقاد عامة المسلمين، إلا أن تاريخهما ليس محفوظا، فلا نعرف شرائعهما مفصلة، فهناك كتاب واحد يُنسب إلى كرشنا عليه السلام واسمه "گيتا"، ولكنه يتحدث عن الحروب والأحداث التاريخية عادةً دون أن يذكر دعواه مفصلة- وكان موسى عليه السلام سيد الأنبياء في السلسلة الإسرائيلية الذين تاريخهم محفوظ إلى حد ما، وقد أخبر الله تعالى هنا أنه قد بعث رسوله ﷺ مثيلاً لموسى عليه السلام.. أي أن النبي ﷺ مِن نفس جنس الأنبياء الذي كان منه موسى. والآن لو تبيّن أن الرسول ﷺ كان أكثرَ حظًّا من الكمالات التي أُعطيَها موسى، لثبت أن نبينا ﷺ قد أُعطيَ الكوثر، لأن الله تعالى لم يقل أن موسى ومحمدا ﷺ متساويان درجةً وكمالا، بل قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.. أي أن ما أُعطيَه النبيُّ ﷺ لم يُعطَه غيره، وبتعبير آخر: لقد أُعطي ﷺ كمالاتِ موسى بل أكثر من ذلك.

والآن هلمّ نرَ الأحداث الهامة والظروف البارزة في حياة موسى عليه السلام لنقارنها مع أحداث النبي ﷺ، ليتبين لنا كيف أعطاه الله الكوثر. وعند تفحّص أحوال موسى عليه السلام يتبين لنا ما يلي:

أولاً: لا شك أن موسى عليه السلام قد بُعث لنشر كلام الله تعالى وتعليم الناس علوما روحانية. والبديهي أن العلوم المادية تساعد كثيرا على التعليم؛ لأن المثقّف أقدرُ على تعليم الآخرين مِن غيره. كان موسى عليه السلام يعرف القراءة والكتابة عند بعثته، مما يعني أنه كان متسلِّحًا بهذا السلاح المادي عندما فُوِّضت إليه مهمة النبوة، فكان أهلاً لأداء مهمّته على أحسن وجه. ولكن النبي ﷺ لم يكن يعرف القراءة والكتابة عندما عُهدت إليه مهمة النبوة، ومع ذلك كان أكثر نجاحًا من موسى عليه السلام. وهذا فضل كبير للنبي ﷺ على موسى عليه السلام.

ثانيا: لقد بُعث موسى عليه السلام إلى أمة متمدنة، إذ كانت الأمة المصرية عند بعثته بينهم من أرقى أمم العالم، وكان بنو إسرائيل أيضا مثقفين ومتمدنين مثل المصريين بحكم عيشهم بينهم، والبديهي أن تعليم الدين وإقامة النظام وخلق الشعور الجماعي بين أُمةٍ متعلمة متمدنة أسهلُ كثيرًا. أما الرسول ﷺ فقد بُعث في أمة غير متمدنة وجاهلة بالعلوم المادية. لما نشبت الحرب بين المسلمين والفرس في زمن عمر رضي الله عنه قال كسرى لحاشيته مرة: إنكم لا تحسنون معاملة العرب على ما يبدو، ولذلك قد ثاروا علينا، فائتوني بهم لأعطيهم بعض المال ليعودوا إلى ديارهم فرحين. فبعث كسرى إلى قائد جيش المسلمين أن يوفد إليه وفدًا من عنده، فلما حضر الوفد قال لهم كسرى: أنتم أمّة متخلفة، تأكلون الميتة والضبّ، فما لكم وللمُلك؟ إني معطيكم مالاً، فاستمتِعوا به واجلسوا في بيوتكم بهدوء، وقد قررت أن أعطي كل قائد منكم دينارين وكل جندي دينارا،* فماذا ترون؟ فلما انتهى من كلامه قام الصحابي الذي ترأس الوفد ورد على كسرى قائلا: أيها الملك، إن ما تقوله صحيح، فقد كنّا أمّة متخلفة، نأكل الميتة والضبّ، ونسيء معاملة يتامانا ونتزوج أمهاتنا (أي زوجات آبائنا)، ولكن الله تعالى بعث فينا رسولاً فآمنّا به، فتخلَّصْنا من هذه العيوب ولم نعُدْ كما كنا من قبل، أما المال؛ فاعلم أننا لن نخضع لهذه المغريات. لقد نشبت الحرب بيننا، وسيحسم هذا الأمر الآن في ساحة القتال لا بإغرائنا بالمال، فإما أن نقتلك في الحرب أو نُستشهد. فدعا كسرى أحد الخدم وأمره بإحضار كيس من التراب، فلما جاء به أمر هذا الصحابيَّ أن يتقدم إليه، ثم أمر بوضع كيس التراب على عنق الصحابي. لم يستطع الصحابي الرفض، فانحنى بأدب وحمَل الكيس، فقال كسرى: ارجعوا بهذا التراب، فهذا هو جزاؤكم عندي. فخرج الصحابي راكضًا من البلاط وصائحًا بأصحابه قائلا: هلم نرجع، فقد سلّم

* نص ما ورد في "البداية والنهاية" هو: "قد أمرتُ لكم بكسوة، ولأميركم بألف دينار وكسوة ومركوب." (المترجم)

لنا كسرى أرضَ بلاده بيده. كان الملِك مشركًا، والمشرك كثير التوهّم، فلما سمع كلام الصحابي ارتجف وقال لحاشيته: أسرِعوا وارجعوا بهم حالاً، ولكن المسلمين كانوا قد خرجوا بعيدًا على متون خيولهم بسرعة، فلم يُدركوهم (البداية والنهاية: غزوة القادسية).

فالأمة أو البلد الذي عمِل فيه موسى عليه السلام كان أكثرَ تمدنًا كما تؤكد ذلك الآثارُ في مصر، فالبنايات التي بناها المصريون في ذلك العصر ضخمة وعظيمة جدًا بحيث تبدو بنايات اليوم أمامها ضئيلة جدًا. أما العلم فكان متطورا في مصر بحيث حَفِظ أهلُها جثث موتاهم بالتحنيط. لقد رأيتُ هذه المومياوات بأم عيني، وإذا رأيتَ إحداها خُيّل لك أنها لا تزال حية، ولو أزلت عنها أكفانها ظننت أنك ترى إنسانا نائما إلا أنه أصبح نحيفا. ما زال الأوروبيون يحاولون حتى اليوم حفظ جثث الموتى مثل المصريين ولكن لم ينجحوا في ذلك بعد. لقد أخذوا عينات من مادة هذه المومياوات وقاموا بتحليلها وصنعوا مادة استطاعوا بها حفظ الموتى إلى حدٍّ ما، ولكنها لا تبقى محفوظة أكثر من ١٠ أو ١٢ سنة. أما مومياوات المصريين فهي محفوظة منذ آلاف السنين؛ وربما أكثر من ٣٤٠٠ سنة. يمكنك أن تقدر تطوُّر العلم عند المصريين القدماء بحيث إن الناس اليوم لا يستطيعون مباراتهم في هذا المجال! ثم كان علم الصناعات الذهبية متطورًا عند المصريين، وهذا دليل بيِّن على تقدمهم المدهش. ومن هنا يمكنك تقدير مدى تمدُّن الأمة الإسرائيلية ورقيها إذ كانت تعيش بين المصريين.

باختصار، لقد قام موسى عليه السلام بمهمة النبوة بين قوم متمدنين مثقفين بالعلوم المادية، أما محمد ﷺ فعمل بين قوم كانوا يسيئون إلى أمهاتهم، بل كان بعضهم يتزوجونهن (روح المعاني: سورة النساء)، بالإضافة إلى وقوعهم في عيوب كثيرة أخرى، ومع ذلك كان ﷺ أكثر نجاحا من موسى عليه السلام.

ثالثًا: عندما اختار اللهُ تعالى موسى عليه السلام نبيًا قال: رب، إنها مهمة صعبة لا أستطيع القيام بها وحدي، فاجعلْ لي وزيرا يساعدني. وليس هذا فقط، بل طلب أن يكون هذا الوزير من أهله وأقاربه. انظرْ إلى الشعور الذي انتابه عند ذلك! لقد

عهد الله إليه مهمة النبوة، ولكنه رفضها. نحن نسلِّم أنه عليه السلام رفضها تواضعًا، ولكن يجب أن يكون للتواضع حد. لقد قال الله تعالى له مرة بعد مرة: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾، ولكنه ظل يرفض كما يتبين من التوراة، ثم يصرّ على أن يكون له مساعد، ثم يلحّ أن يكون هذا المساعد من عائلته؛ مما يدل على أنه عليه السلام كان يريد أسبابا مادية لإنجاز مهمته التي أمره الله بها. أما نبيّنا ﷺ فمع أنه كان قد بُعث في زمن بعيد جدا عن عصر النبوة -علمًا أن موسى بُعث في فترة قريبة جدا من بعثة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، أما رسولنا ﷺ فقد بُعث بعد إبراهيم وإسماعيل بنحو ٢٥٠٠ سنة، ولم يُبعث في قومه أيّ نبيٍّ في هذه الفترة- إلا أنه ﷺ كان أكثرَ معرفةً من موسى عليه السلام، وعندما جاءه الملاك وقال له: اقرأْ، قال: ما أنا بقارئ، أي لا أعرف القراءة والكتابة -علمًا أن قول جبريل له (اقرأْ) لا يعني أنه أمره أن يقرأ كتابًا وضَعه أمامه، إذ لم يأته بأي كتاب، ومعلوم أنه إذا جاءك أحد من دون كتاب ثم قال لك اقرأْ، فإنما يعني أن تردد وراءه ما يقرأ- فلما قال له الملاك: أيها الرجل رَدِّدْ ورائي ما أقول -لقد ناداه هكذا لأنه ﷺ لم يكن قد بُعث نبيًّا بعدُ- قال: ما أنا بقارئ، أي لا أعرف القراءة والكتابة. انظرْ إلى ذروة تواضعه ﷺ، فكان يرى أن مهمة عظيمة ستُعهد إليه، واللهُ عظيم وهو عبد ضعيف، فلعله لن يستطيع أداءها على ما يرام، ومن أجل ذلك قال: ما أنا بقارئ، أي لا أعرف القراءة والكتابة، فكيف أُنجزها؟ فقال له الملاك ثانية: اقرأْ، فردّ عليه النبي ﷺ: ما أنا بقارئ. فقال له الملاك للمرة الثالثة: اقرأْ، فأخذ النبي ﷺ يردّد وراءه. هذا هو عين التواضع، إذ لم يصرّ على إنكاره، بل أدرك أن الله تعالى مفوّض إليه هذه المهمة في كل حال، فانصاع لأمر الله تعالى مدركًا أن الرفض الآن سوءُ أدب. ثم إنه ﷺ لم يطلب وزيرًا ولا مساعدا، بل رضي بحمل العبء وحده ما دامت هذه هي مشيئة الله. هذا هو ما يدل على فضل النبي ﷺ على غيره. لقد عُهدت إلى موسى عليه السلام مهمة أدنى ومع ذلك طالب بوزير مساعد، أما النبي ﷺ فعُهدت إليه مهمة عظمى، فانبرى لإنجازها وحده، ثم أنجزها على أحسن وجه. فما أعظمَ فضلَ النبي ﷺ على موسى عليه السلام في هذا المجال!

رابعا: لقد أُعطيَ موسى عليه السلام كتابًا كما أعطيَ نبيُّنا ﷺ كتابا، ولكن الفرق أن كتاب موسى لم يبق محفوظًا رغم مجيء الأنبياء بعده تَتْرَى ، أما النبي ﷺ فكتابه لا يزال محفوظا حتى اليوم رغم انقضاء ١٣ قرنا، ورغم أنه لم يُبعث في هذه الفترة أي نبي. فمن الحقائق الثابتة أن التوراة كانت قد صارت محرفة قبل بعثة عيسى عليه السلام، فقد ورد في المصادر اليهودية أن نُسَخ التوراة كلها كانت قد احترقت أو ضاعت عندما دمَّر "نبوخذ نصّر" مُدن اليهود ومعابدهم وقام بترحيل بعضهم إلى أفغانستان وإيران وبعضهم إلى كشمير. فقام النبي عزرا بجمع التوراة بمساعدة بعض الحفاظ وأربعة أو خمسة من الكَتَبة. (Apocrypha(ii) Esdrass 14 pg. 44-46)

مما يعني أن التوراة انمحت بعد موسى عليه السلام بستة قرون فقط.

إضافةً إلى ذلك، هناك شهادات داخلية في التوراة تدل على أنها تعرّضت للعبث والتحريف، فقد ورد فيها: "فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ" (التثنية ٣٤: ٥). فهل يعقل أن يكون هذا الكلام من الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام؟

ثم ورد فيها: "وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ" (التثنية ٣٤: ١٠). هل يمكن أن يكون هذا مما أوحيَ إلى موسى عليه السلام؟

ثم ورد فيها: "وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ.... فِي أَرْضِ مُوآبَ.... وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هذَا الْيَوْمِ" (التثنية ٣٤: ٦). وهذه الجملة أيضا قد أضافها البعض إلى التوراة فيما بعد.

لقد تبين من هنا أن التوراة الحالية ليست ذلك الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام. لو كان مكتوبا في القرآن الكريم مثلاً: "ثم مات محمد رسول الله"، فهل يصدِّق النصارى والهندوس وغيرهم أن القرآن كتاب محفوظ؟ كلا، بل سيسخرون منا ويضحكون علينا بسبب هذه الجملة ويقولون: لقد أصبح كتابكم محرفًا مبدلا. أما التوراة فمكتوب فيها أن موسى مات بعد ذلك، وأن بني إسرائيل ظلوا يبكونه أربعين يوما، وأنه لم يولد إنسان مثل موسى في بني إسرائيل حتى اليوم، وأن قبره

غير معروف. كل هذا يدل أن هذا الكتاب ليس ذلك الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام، وأن الأنبياء الذين بُعثوا بعده لم يستطيعوا الحفاظ على التوراة. أما الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ فلا يزال محفوظا منذ ١٣٠٠ سنة، لم يتغير منه حتى حركة واحدة، مع أنه لم يُبعث في هذه الفترة أي نبي بعده ﷺ، حتى إن ألدَّ أعداء الإسلام -مثل وليام موير ونولدكه وغيرهما- لم يجدوا بدًّا من الاعتراف بأن القرآن الكريم لا يزال محفوظا كما كان في زمن محمد ﷺ. فيقول وليام موير الذي لا يترك فرصة لمعاداة الإسلام:

"There is otherwise every security internal and external that we posses that text Mohammad himself gave forth and used."

(Life of Mohammad by Sir William Muir. P28)

أي أن لدينا كل ضمان داخلي وخارجي على أن الكتاب الذي بين أيدينا هو بنصِّه الذي قدّمه محمد للناس واستعمله.

إذن، فإن أشدّ الناس عداوة للإسلام أيضا لم يجدوا مناصا من الاعتراف بكون القرآن الكريم محفوظًا. فما أعظمَه مَن فضلٍ خُصَّ به النبي ﷺ!

قد يقال هنا: أنتم أيضا تؤمنون أن حضرة الميرزا -عليه الصلاة والسلام- نبي، فكيف تقولون أنه لم يُبعث بعد محمد ﷺ نبيٌّ لحفظ القرآن وحمايته؟

والجواب: أن حضرته عليه السلام لم يُبعث للحفظ الظاهري للقرآن الكريم، فسواء بُعث أم لم يُبعث فإن الله تعالى كان قد هيّأ الأسباب لحفظ القرآن الكريم ظاهرًا، وكان من المستحيل بعده أن يحدث فيه أي تحريف، فبعثة المسيح الموعود عليه السلام لا تشكّك في هذه المعجزة القرآنية، إذ لم يكن له دخلٌ في الحفظ الظاهري للقرآن، إذ كان سيظل محفوظا ظاهرا إلى يوم القيامة وإن لم يأتِ أي مجدد، ولن يتغير أبدا كما لم يتغير حتى اليوم.

خامسًا: لما خرج موسى عليه السلام من مصر مع قومه وطارده فرعون خاف قومه خوفا شديدا وظنوا أنه سيبطش بهم، فصرخوا وقالوا لموسى كما ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء:٦٢-٦٣)..

أي سوف ينقذنا ربي من عدونا. وبالفعل حماه الله وأغرق فرعون وجنوده. ونبينا ﷺ أيضًا كان قد خرج مهاجرا من مكة واختفى في غار ثور، فتتبّعَ آثارَه دليلٌ خبير جاء مع الكافرين حتى وصل إلى فم الغار الذي كان النبي ﷺ مختبئا فيه مع أبي بكر، فقال: إن محمدا مختبئ فيه أو قد صعد في السماء. وكان الأعداء قد اقتربوا منهما حتى خاف أبو بكر وقال يا رسول الله، لو نظر هؤلاء في الغار لرأونا، فهدّأ النبي ﷺ مِن رَوعه وقال: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠)، ومع أن العدو كان قد وصل إلى فم الغار، إلا أنه رجع خائبا خاسرا ولم يستطع القبض عليه ﷺ (الروض الأنف: الرسول ﷺ وأبوبكر رضي الله عنه في الغار، والمواهب اللدنية: باب هجرة المصطفى ﷺ وأصحابه إلى المدينة).

هذا يعني أنه كما قال موسى عليه السلام: إن معي ربي، وسينصرنا على العدو، كذلك قال النبي ﷺ: إن الله معنا وسوف ينصرنا. ولكن التدبر يكشف لنا أن أعداء موسى عليه السلام قد هلكوا بطريقة لا يزال العدو يقلّل من شأن هذه المعجزة حتى اليوم، فيقولون: لقد مر موسى وقومه بالبحر وقت الجَزْر، بينما أدرك المدُّ فرعونَ وجنودَه فغرقوا، فما المعجزة في ذلك؟ أما الرسول ﷺ فإن الله تعالى قد نجّاه من عدوه الذي وصل إلى الغار متتبعًا آثاره، ومع ذلك لم يستطع أن يراه؛ فمع أن دليلهم الخبير قد أصرَّ عليهم أن محمدا مختفٍ في الغار أو صعد إلى السماء، إلا أن الله تعالى جعلهم لا يصدّقونه، فلم ينظروا في الغار، فرجعوا خائبين.

ثم إن الكافرين قد جعلوا مكافأة مائة من الإبل لمن يأتي بمحمد ﷺ أسيرًا (السيرة النبوية لابن هشام: هجرة الرسول ﷺ)، فخرج الناس بحثًا عنه طمعًا في المال ولتحسين وضعهم المادي، إذ كانت مائة من الإبل مكافأةً مغرية جدًا آنذاك بل اليوم أيضا؛ فإن الحكومات عندنا تجعل جائزة ١٠ أو ١٢ ألف روبية لمن يقبض على بعض كبار المجرمين، أما ثمن مائة من الإبل بسعر اليوم فيبلغ ٦٠ أو ٧٠ ألف روبية على الأقل. باختصار، خرج الكثير طمعًا في هذه الجائزة المغرية، لكن واحدا منهم فقط اتّبع الطريق الذي سار عليه النبي ﷺ إلى المدينة، فرأى النبيَّ ﷺ وظنّ أنه سيتمكن من القبض عليه، فلما اقترب منه أُصيب حصانه بكبوة وغاص في الرمال

إلى الرُكب، ضرب القرعة بالسهام على عادة العرب ليعرف ما إذا كان عليه أن يتقدم أم لا، فخرج السهم بالنفي، ولكنه لم يقوَ على مقاومة المكافأة المغرية: مائة من الإبل، فاستحثّ حصانه ثانية، ولما اقترب من النبي ﷺ كبا حصانه ثانية وغاص في الرمال إلى بطنه، فاستولى عليه الخوف وأدرك أن الأمر ليس كما ظنّ، فأتى النبيَّ ﷺ في غاية الأدب وقال: لقد خرجتُ مطاردًا إياك، ولكني سأرجع الآن، لأني قد أيقنت أنك نبي الله حقًا وسوف تصبح غالبا في نهاية المطاف، فأرجوك أن تكتب لي الأمان على رقعة، حتى إذا كتب الله لك الغلبة عاملتَني معاملة طيبة. فأمر النبي ﷺ أبا بكر◈ أن يكتب له بالأمان وبأن يعامله المسلمون بالحسنى عند غلبتهم، ففعل. (البخاري، كتاب المناقب)

وهذا يعني أن النبي ﷺ لم ينجُ من الموت مرةً مثل موسى عليه السلام، بل نجا مرتين. لقد حاول الأعداء القبض عليه مرتين، ففشلوا.

ثم إن فرعون كان قد رأى موسى عليه السلام لما خرج مع جنوده على أثره، أما أعداء النبي ﷺ فلم يستطيعوا رؤيته رغم وصولهم قريبًا منه.

ثم إن العدو لما أراد القبض على النبي ﷺ في المرة الثانية فشل، بل اعترف بغلبته.

ثم إن عدو موسى عليه السلام قد آمن بالله تعالى وقت الغرق، حيث ورد في القرآن الكريم أن فرعون لما أوشك على الغرق قال آمنت برب موسى وهارون، فردّ الله عليه: إنك تؤمن وأنت مشرف على الموت، والآن لن ننجيك، بل ننجي بدنك فقط لتكون عبرة للآخرين. أما النبي فإن عدوه الذي خرج للقبض عليه ظلَّ حيًّا، واعترف في حياته أنه نبي الله الحقّ، بل طلب منه ﷺ أن يكتب له أمانًا بأن يُعامَل معاملة طيبة عند غلبته. ثم إن الله تعالى قد جعل هذا العدو يحيا حتى يرى غلبة

◈ لقد ورد في المرجع المشار إليه هنا أن النبي ﷺ أمَر عامرَ بن عامر بن فهيرة –مولى أبي بكر– ليكتب الأمان لهذا. (المترجم)

الإسلام ليحسن إليه المسلمون. فما أعظمَ هذا الفضل الذي تميّز به النبي ﷺ على موسى عليه السلام!

سادسًا: ومن أفضلية النبي ﷺ على موسى عليه السلام أن موسى لم يستطع أن يستولي على مُلك أعدائه رغم هلاكهم -لا شك أن بعض المشايخ الجاهلين يقولون بناءً على استنتاج خاطئ من آية قرآنية بأن موسى عليه السلام قد استولى على مُلك المصريين بعد غرقهم، والحق أن لا دليلَ على صحة موقفهم لا في القرآن الكريم ولا في الكتاب المقدس. وما قيمة قول من دون دليل- إن الواقع الذي يؤكده القرآن الكريم هو أن موسى عليه السلام وقومه ظلّوا تائهين في الفلوات والبراري بعد خروجهم من مصر، ولم تصل أُمته إلى غايتهم المنشودة إلا بعد مدة طويلة، أما الرسول ﷺ فاستولى على مُلك أعدائه بعد أن هزمهم، وهذا أحدُ أوجهِ فضل النبي ﷺ على موسى عليه السلام.

سابعًا: إن أول مواجهة بين قوم موسى وعدوهم كانت في البحر الأحمر، ولكن لم تقع هناك حرب بين الطرفين، وإنما كان بنو إسرائيل يهربون خائفين أن يمسك بهم فرعون، فلما رأوه وجنوده قالوا في فزع: إنا لمدرَكون. ثم لما جاء وقت القتال وأمرهم موسى عليه السلام أن يتقدموا ويقاتلوا عدوهم، رفضوا القتال، مع أن أرض كنعان صغيرة، إذ إن مساحة فلسطين هي عشرة آلاف ميل مربع، ومساحة أرض كنعان منها ألفان أو ثلاثة آلاف ميل مربع، ولما أمرهم موسى بالقتال لِفَتْح هذه الأرض وقال -كما ورد في القرآن الكريم والكتاب المقدس- لقد رأيتم كيف نصركم الله على المصريين، فادخلوا هذه الأرض واستولوا عليها لتوطيد ملكوت الله فيها، قالوا ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥).. أي سندخلها إذا فتحتَها، ولسنا مستعدّين للقتال. لقد كنتَ تخبرنا بأن الله سيعطيكم هذه الأرض، فليعطنا إياها الآن، فلماذا تطالبنا بالقتال؟ ألم يعدْك بهذا مِن أجلنا؟ مما يعني أنهم لم يتعلموا مع بقائهم في صحبة موسى عليه السلام لثمان أو عشر سنوات أنه لا بد للعباد من السعي بعض الشيء حتى يحقّق الله لهم ما وعدهم. وإنما قالوا لموسى عليه السلام بكل وقاحة: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. أما نبيّنا ﷺ

فلما بلغه أن قافلة تجارية للمكيين قادمة من الشام، محرّضةً القبائل في طريقها على المسلمين، خرج ﷺ مع بعض أصحابه لوضع الحد لشرورهم. ولم يخرج معه الصحابة كلهم، إذ رأوا أن القافلة صغيرة ولا يريد الرسول ﷺ أي قتال وإنما يريد إزالة تأثير دعايتها المسمومة حتى لا يجرؤ العرب على مهاجمة المسلمين. ولكن الله تعالى أخبر الرسول ﷺ أن جيشا كبيرا قادما من مكة لحماية قافلتهم التجارية، كما أمره الله تعالى ألا يخبر صحابته بذلك لأنه يريد اختبارهم، فظل النبي ﷺ يتقدم في سيره، حتى إذا قطع أشواطا جمَع صحابته وقال إن الله أخبرني أن العدو آتٍ بجيش كبير من مكة، ولعلّ الله يجعلكم تشتبكون مع هذا الجيش أو مع القافلة القادمة من الشام (السيرة النبوية لابن هشام: غزوة بدر الكبرى). ثم تقدّمَ أكثر فكشف الله عليه أن المسلمين سيشتبكون مع الجيش القادم من مكة لا مع القافلة. كان جيش الكافرين مكونًا من مقاتلين مجربين مسلحين، وكان أكثرَ من المسلمين عددًا وقوة. أما فيما يتعلق بالتمدن فكان الطرفان سيِّين، إذ كانوا جميعا من العرب، أما أصحاب موسى عليه السلام فكانوا متمدّنين منظَّمين، بينما كان الكنعانيون قبائل غير متمدنة وجاهلة، ومع ذلك لما حان القتال رفض بنو إسرائيل أن يقاتلوا العدو، أما أصحاب النبي ﷺ فلم يرفضوا القتال مع أنهم كانوا أضعف من عدوهم من كل النواحي؛ إذ كانت فئة منهم من أهل المدينة الذين لم يكن لهم خبرة بالقتال البتّة (الطبقات الكبرى لابن سعد: غزوة بدر). ثم كان عدد المسلمين ٣١٣ فقط، وكان العدو ألف مقاتل، ثم إن العدو كان أكثر منهم خبرةً وعدّةً وعتادًا، إذ كان عندهم أسلحة وخيول، والمعروف أن الخيل أنفع من الإبل في القتال، أما المسلمون فلم يكن عندهم إلا فرس واحد (البخاري: كتاب المغازي، والسيرة النبوية لابن هشام: غزوة بدر الكبرى). فجمع النبي ﷺ أصحابه وقال لقد علمتُ علم اليقين أننا سنقاتل الجيش القادم من مكة تحت قيادة أبي جهل، فماذا ترَون؟ فجعل المهاجرون يقفون واحدا بعد آخر ويقولون: يا رسول الله، سوف نحاربهم، ولكن الرسول ﷺ ظلّ يقول: أيها الناس، أشيروا عليَّ بما ترون. لقد لزم الأنصار الصمت لظنِّهم أن الجيش الذي جاء من مكة مكوَّن من أقارب المهاجرين وإخوانهم، فلو

قالوا إنهم مستعدّون لمحاربة الكافرين، فلربما ظنّ المهاجرون أنهم لا يحبّونهم ولذلك يتحمسون لقتال هذا الجيش الكافر المكون من إخوانهم وأعمامهم وأبناء إخوانهم. ولكن الرسول ﷺ ظلّ يقول: أيها الناس، أشيروا عليَّ بما ترون. فقام أنصاري وقال: يا رسول الله، لقد أبدى القوم برأيهم، ومع ذلك تقول أشيروا عليّ أيها الناس، فلعلك تعنينا نحن الأنصار؟ فقال ﷺ: نعمْ. فقال الأنصاري: يا رسول الله، لقد كنّا صامتين مخافة أن نجرح مشاعر إخواننا المهاجرين. ويا رسول الله، عندما التقى بك ٧٢ من إخواننا في مكة أول مرة بايعناك على محاربة العدو بأموالنا وأنفسنا إذا شنّ الهجوم على المدينة، ولن نحاربه معك إذا حاربك خارجها، إذ لا طاقة لنا بالعدو خارجها، ولعلك تسألنا الآن مرة بعد أخرى بسبب تلك المعاهدة، لأن هذا القتال سيقع خارجها؟ فقال النبي ﷺ: أجلْ. فقال الأنصاري: يا رسول الله، عندما عقدنا معك ذلك العهد لم تكن عظمتك قد انكشفت علينا بعدُ، أما وقد عشنا معك هذه الفترة ورأينا سموّ خلقك وعظيم صلتك بالله تعالى، فقد انكشفت علينا عظمتك تماما، فلا حاجة الآن للتقيّد بتلك المعاهدة. يا رسول الله، لو أمرتَنا أن نخوض هذا البحر أمامنا لخضناه وما تخلَّف منا أحد. لقد قال ذلك لأن مقام بدر كان قريبا من البحر. ولعل هناك سببا آخر لقوله هذا وهو أن العرب كانوا يخافون البحر كثيرا. ويبدو أن الله تعالى قد ألقى في قلب هذا الأنصاري بأن لا يظن النبي ﷺ أن الأنصار سيتخلفون عن القتال معه كما فعلت أمة موسى عليه السلام، فلذلك قال: يا رسول الله، لن نقول كما قال قوم موسى ﴿فاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥). يا رسول الله، لو نشبت الحرب فسوف نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومِن أمامك ومن ورائك، ولن يخلُص إليك العدو إلا على جثثنا الهامدة.

قارنْ هذا الحادث بحادثة قوم موسى عليه السلام حين قالوا له ﴿فاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، لتعرف البون الشاسع بين مكانة صحابة النبي ﷺ وبين قوم موسى عليه السلام. وما أعظمَ فضلَ النبي ﷺ على موسى عليه السلام في هذا المجال أيضا!

ثامنا: حينما قال قوم موسى عليه السلام له: ﴿فاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾ قال الله تعالى لموسى إن قومك قد أساءوا إساءة كبيرة ولن يحالفهم الآن هذا الفتح الذي وعدناهم به عقابًا منا. فاذهبوا تائهين في الفلوات أربعين سنة واستغفروا على ذنوبكم حتى يغفر الله لكم. فلم يُعْطَ قومه مُلْكَ كنعان إلا بعد التيه في تلك الفيافي والفلوات أربعين سنة. أما صحابة الرسول ﷺ فقد أعطاهم الله تعالى الحُكم على كل العالم المتمدن في ذلك الوقت خلال ١٢ سنة بعد وفاته ﷺ. ولا شك أن هذا أيضًا يشكل فضْلا لنبينا ﷺ على موسى عليه السلام.

تاسعًا: ومن الخصائص التي تميّز النبي ﷺ على موسى عليه السلام أن سلسلة نبوة موسى انتهت، ولكن سلسلة النبي ﷺ مستمرة ولن تنتهي إلى يوم القيامة. لا شك أن السلسلة الموسوية امتدت إلى عيسى عليه السلام، بل حتى زمن الرسول ﷺ، ولكن بالاسم فقط، لأن قوم عيسى أخذوا يفضّلونه على موسى بعد فترة من وفاته، بل اعتبروه ابن الله. أما نبينا ﷺ فسلسلة نبوته لن تنتهي إلى يوم القيامة.

عاشرا: لقد تنكّر لموسى عليه السلام أتباعُ المسيح الناصري عليه السلام آخرِ خليفة لموسى، وأنكروا أفضليته. وكان سبب ذلك في الحقيقة انخداع قوم عيسى بكلمات ذات معنيين خرجت من فمه كتسميته نفسه ابن الله تعالى، أمّا النبي ﷺ فإن آخر خليفة في سلسلة نبوته.. أعني المسيح الموعود عليه السلام مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية.. قد أعلن بمنتهى الأدب:

وہ ہے میں چیز کیا ہوں بس فیصلہ یہی ہے

أي: أن قولي الفيصل هو أن النبي ﷺ هو كل شيء، ولستُ بشيء إزاءه.

وبتعبير آخر: إن كل ما حُزته من فضل وكمال فإنما هو ببركة كوني خادمًا للرسول ﷺ، فلا أساوي شيئًا إزاء النبي ﷺ.

وهناك بيت شعر للمسيح الموعود عليه السلام يطعن فيه الناس، ولكننا نستمتع به، وهو:

ابنِ مریم کے ذکر کو چھوڑو

اس سے بہتر غلامِ احمد ہے

أي: اتركوا ذكر ابن مريم، فإن غلام أحمد خير منه

يقول الطاعنون أن المسيح الموعود عليه السلام قد ادعى هنا أنه أفضل من ابن مريم عليه السلام. والحق أنه عليه السلام لم يدّع هنا أنه أفضل من المسيح عليه السلام، بل بيّن أن غلامَ أحمدَ ﷺ أفضلُ من ابن مريم. وهناك فرق كبير بين التعبيرين، إذ المراد من أحمد هنا هو محمد رسول الله ﷺ، ومعنى البيت: إذا كان غلامُ محمد ﷺ هو أيضًا أفضل من عيسى عليه السلام، فما بالك بمحمد ﷺ نفسه؟

باختصار، إن من فضل النبي ﷺ على موسى عليه السلام أن جماعة آخر خليفة في السلسلة الموسوية اعتبروا نبيَّهم عيسى أفضلَ من مؤسسها، أما محمد ﷺ فإن آخر خلفائه عمِل على إرساء عظمة وفضل سيده معلنًا بكل قوة أن كل ما حازه من فضل وكمال فإنما حازه ببركة فيوض النبي ﷺ.

حادي عشر: كل الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى عليه السلام كانوا أنبياء مستقلين. لا شك أنهم لم يأتوا بشريعة جديدة، لكنهم قد تشرفوا بالنبوة مباشرة مِن دون توسط موسى عليه السلام، إذ لم يكن الشرع الموسوي قادرا على أن يوصل أحدا إلى درجة النبوة، أما النبي ﷺ فيتميز على موسى عليه السلام بأنه لا ينال أحد من أتباعه ﷺ أيَّ منصب روحاني ولو منصب النبوة إلا ببركة اتّباعه، فكل ما ينالونه فإنما ينالونه ببركة الفيوض المحمدية. لا شك أن عيسى عليه السلام كان تابعًا لموسى عليه السلام، ولكنه نال النبوة مباشرة؛ إذ لم تكنْ تعاليم موسى قادرة على إيصال أحد إلى مقام النبوة، أما القرآن فمِيزته أن الإنسان يمكن أن يبلغ درجة النبوة بالعمل به، غير أنه يبقى تابعًا لمحمد ﷺ وخادمًا للقرآن الكريم.

ثاني عشر: لقد أُعطيَ موسى عليه السلام معجزة العصا التي كانت تتحول إلى ثعبان يلدغ، أما الرسول ﷺ فقد أُعطيَ سيف القرآن الذي هو رحمةٌ في رحمة إلى الأبد، وقد أشار الله تعالى إلى هذا السيف القرآني قائلا: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٣).. أي خُذْ بيدك سيف القرآن وجاهِدْ به باستمرار؛ واعلمْ أن الحروب التي تُدار بالسيوف تكون بسيطة وتنتهي بسرعة، ولكن سيف القرآن سينفعك ضد العدو دائما، وستؤدّي إلى الرحمة دومًا، ومن أجل ذلك سُمي النبي

ﷺ مرارا رحمةً للعالمين، وقد فضَّل في تعاليمه الرفقَ والحبُّ على التعذيب والانتقام. لقد علّم موسى عليه السلام مثلاً أنه إذا لطمك أحد على خدك فالطمْه، وإذا فقأ عينك فأَخرِجْ عينه، وإذا كسر سنَّك فاكسرْ سنَّه، أما الإسلام فيعلِّمك أن لا تتخذ أي خطوة إلا بعد التروي ودراسة الظروف، فإذا كانت المصلحة في العفو عن العدو فاعفُ عنه، ولا تصرّ على عقابه، ويجب أن يكون هدفك هو الإصلاح لا الانتقام.

ثالث عشر: لقد أُعطيَ موسى عليه السلام معجزة اليد البيضاء.. أي كانت يده تلمع أحيانا، وأما النبي ﷺ فقد سماه الله تعالى سراجًا منيرا؛ والواضح أن الشمس كلها تضيء وليس جزء منها، مما يعني أن يد موسى عليه السلام فقط كانت تلمع، بينما كان جسد الرسول ﷺ كله منوّرًا. ثم إن الشمس تضيء كل حين لا في بعض الأحيان، ولكن يد موسى عليه السلام كانت تلمع أحيانا. وفي هذا إشارة إلى أن رسول الله ﷺ كان هاديا في كل الأمور، وأنّ هُداه سيظل قائما باقيًا على الدوام، لا أنه ينفع أحيانا ويتوقف أحيانا.

رابع عشر: لقد بُعث موسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط، أما نبينا ﷺ فأخبره الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(سبأ:٢٩). وهذا أيضا أحد أوجُهِ فضل النبي ﷺ على موسى عليه السلام.

خامس عشر: وكان من معجزات موسى عليه السلام هلاك الأبكار من أولاد المصريين، وموت الأبكار ليست آية ذات شأن، لأن كل إنسان لا بد أن يموت حتمًا، أما الرسول ﷺ فقد أُعطيَ معجزة لا نظير لها في العالم، فلم يُمتْ أبكار أولاد الكافرين به فحسب، بل مات أولادهم كلهم، ثم أُحيوا وانضموّا إلى جماعته ﷺ. كان الوليد عدوًا لدودا للرسول ﷺ، إذ كان يحرّض القبائل على محاربته ﷺ وقتله. وكان العاص بن وائل يكن له ﷺ عداء شديدًا، إذ كان يحيك المكائد ضده، ويجهّز الجيوش لحربه ﷺ. وكم كان أبو جهل شديدًا في عداوته للنبي ﷺ! لقد قضى حياته كلها في محاربته ﷺ. ولكن انظروا كيف أن خالد بن الوليد آمنَ بالرسول ﷺ إيمانًا صادقًا حتى إن المسلمين يسمون أولادهم باسم خالد تذكارًا له، ويخوّفون أعداء الإسلام بأنه لا يزال عندنا خالد. كان الوليد هو الشخص الذي أقسم أنه لن

يبرح حتى يجعل محمدًا ذليلا مهانا بين الناس، أما ابنه خالد فهو القائد نفسه الذي فطن في غزوة أحد إلى أنّ ظَهْر جيش المسلمين أصبح مكشوفا، فاغتنم الفرصة وشنّ عليهم الهجوم من ورائهم، فانقلب نصر المسلمين هزيمة مؤقتة. ولكنه أسلم فيما بعد وبلغ من الفداء والتضحية ما بلغ، حتى إن التاريخ يخبرنا أنه لما حانت وفاته جاءه أحد أصدقائه لعيادته، فوجده باكيًا، فقال له مستغربا: خالد، مالَكَ تبكي؟! لقد قدّمتَ للإسلام تضحيات عظيمة، فعليك أن تفرح إذ تُجزى الآن عليها جزاء عظيما بإذن الله. فقال خالد: ادنُ مني، واكشِف ظهري، فكشف ظهره، فقال له خالد: هل تجد في ظهري مكانًا يخلو مِن أثرٍ لجرح؟ قال: لا. قال: الآن، اكشف الثوب عن صدري، ففعل، فقال: هل ترى فيه مكانا لا تجد فيه أثرٍ لضربة سيف؟ قال: لا. قال: اكشف رجليّ الآن، فهل تجد فيها مكانا خاليا من أثرٍ لضربة سيف؟ قال: لا، بل أجد آثار الضربات في كل مكان. فأخذ خالد بالبكاء ثانية وقال: إني لا أبكي من الموت، بل أبكي لأني حاربت النبي ﷺ زمن الكفر، ثم شرّفني الله بالإسلام، فبذلت كل ما في وسعي لأُستشهد وتكون شهادتي كفّارة عن ذنوبي وذنوب عائلتي، وأنت شاهد على أني لم أقصّر في هذه المحاولة إذ لا تجد أي عضو من قمة رأسي حتى أخمص قدمي إلا ويوجد فيه آثار الجروح. ثم أجهش خالد بالبكاء وقال: ولكن انظرْ إلى سوء حظي؛ إذ لم تتحقق أمنيتي، وها أنا أموت على السرير بدل أن استُشهد في ساحة القتال (الإصابة في تمييز الصحابة: خالد بن الوليد رضي الله عنه، وأُسد الغابة: خالد بن الوليد رضي الله عنه).

ما أعظمَها مِن آية أُعطيها النبي ﷺ! إذ آمنَ به ألدّ أعدائه، ثم قدّموا في سبيله تضحيات عديمة المثال. لقد أهلك الله تعالى الأبكار من أولاد أعداء موسى عليه السلام مِن دون أن يحبّوه، أما الرسول ﷺ فقد قتَل الله تعالى أولاد أعدائه إيمانًا وحبًّا له ﷺ، حتى جعلوا يتحسرون على أنهم لم يُستشهدوا في الحرب، بل يموتون على السرير.

عندما حانت وفاةُ عمرو بن العاصي -الذي سُمّي فيما بعد عمرو بن العاص رضي الله عنه- وجده ابنُه في قلق واضطراب، وكان ابنه هذا قد أسلم قبله وكان صحابيا

كبيرا، فقال له: يا أبت، ما لي أراك قلقًا؟ لقد وهبك الله تعالى درجة عظيمة وشرّفك بالإيمان. فتنفّسَ الصعداء وقال: يا بني، كنتُ أعادي النبي ﷺ قبل إيماني عداء شديدا حتى لم أُطِق النظرَ إلى وجهه، وكلما مرّ أغمضتُ عينيّ كي لا أرى وجهه، ثم شرّفني الله بالإيمان، فأحببته ﷺ حبًّا شديدا لم أُطق معه النظر إلى وجهه، بل كنت أغضّ الطرف دائمًا أمامه، فلم أُوفَّقْ لرؤية وجهه الكريم في الكفر بغضًا له وفي الإيمان حبًّا له، ولو سألني اليوم أحد عن ملامحه لم أستطع وصْفها. يا بني، لا شك أن الله تعالى قد وفّقني للقيام بكثير من الحسنات، ولكنْ قد وقعت بيننا بعد وفاة النبي ﷺ خصومات وحصلت منا تقصيرات، فلا أدري كيف أقابل النبي ﷺ يوم القيامة (مسلم: كتاب الفتن، باب كون الإسلام يهدم ما قبله).

انظرْ كمْ كان هذا الرجل يعادي النبي ﷺ في حالة كفره، ولكن لما شرّفه الله تعالى بالإيمان كان عظيمًا في إيمانه حتى قتله حبُّ الرسول ﷺ.

أما أبو جهل الذي كان شهيرًا في عدائه الشديد للنبي ﷺ، فإن ابنه "عكرمة" آمنَ بالنبي ﷺ، ثم قدَّم تضحية لا نظير لها إنقاذًا لأصحاب النبي ﷺ، حيث خاض في قلب جيش العدو البالغ عدده ما بين ثلاث مئة ألف إلى مليون حسب مختلف الروايات، وجرَح قائدَهم الأعلى، وبعثرَ صفوفهم، واستُشهد في النهاية.

أما أبو سفيان فقد آمنَ بالنبي ﷺ في حياته. وأما ابنه "معاوية" فصار من أبطال الإسلام. لا شك أنه قد صدرت منه بعض الأخطاء، ولكنه قد خدم الإسلام خدمات بارزة أيضا.

باختصار، لقد مات الأبكار من أولاد أعداء موسى عليه السلام، أما نبينا ﷺ فمات أولاد أعدائه كلهم بإيمانهم ودخولهم في أولاده ﷺ الروحانيين، متبرئين من آبائهم.

سادس عشر: ومن الآيات التي أُعطيَها موسى عليه السلام آية القحط الذي حلَّ بأعدائه واستمرّ سنة، حيث اجتاح الجرادُ البلادَ وأكل المحاصيل، أما الرسول ﷺ فقد نزل القحط على قومه سبع سنوات متتالية، حتى اضطروا أن يتوسلوا إليه ليدعو لهم الله تعالى، فدعا، فزال عذاب القحط عنهم بدعائه (البخاري، كتاب التفسير).

سابع عشر: لما تجلى الله لموسى عليه السلام على الجبل لم يتحمل التجلي الإلهي وسقط مغشيا عليه، وذلك واضح من القرآن الكريم والتوراة. أما محمد رسول الله ﷺ فقد وصف الله تعالى مقامه العالي بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾(النجم:٩-١٠).. أي لقد رغب محمد ﷺ في لقاء الله رغبة عارمة، وأخذ يصعد إلى السماء للقائه تعالى، أما الله تعالى فهو أيضًا أحبَّ لقاءه بشدة، فنزل من السماء لكي لا يتأخر لقاؤهما، ثم التقيا واتّحدا ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. كان مِن عادة العرب أن الرجلين إذا تحابّا أطلق كلٌّ منهما سهمًا من قوس واحدة، للإشارة إلى أنه حيثما يتوجه سهم حبيبي يتوجه سهمي أيضًا، وحيثما يتوجه سهمي يتوجه سهمه أيضًا (معالم التنزيل: سورة النجم). إذن، فنبيّنا ﷺ لم يَرَ التجلّي الإلهي فقط، بل عاهدَه الله تعالى قائلا: سيتوجه سهمي حيث توجِّهُ سهمك، ويتوجَّه سهمك حيثما توجَّهَ سهمي. وهذا ما شاهدناه على أرض الواقع أيضًا، فإن النبي ﷺ وجّه سهمه دائما حيث توجه سهم الله تعالى، حتى ولو كان ضدّ أقاربه ﷺ، والله تعالى قد أطلق سهمه حيثما توجه سهم محمد، وإلى ذلك قد أشار الله تعالى في قوله لرسوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(الأَنْفال:١٨).. أي يا محمد، عندما رميتَ حفنة من الحصى في وجه العدو فلم ترمِها أنت، بل أنا الذي رميتها، لأننا وعدناك أنه حيثما تصوب سهمك سنصوّب إليه سهمنا.

هذا فيما يتعلق بمعاملة الله معه بشأن أعدائه ﷺ، أما فيما يتعلق بمعاملته بأصدقائه ﷺ فقال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.. أي أن يدنا على أيدي الذين يبايعونك ويدخلون في زمرة أتباعك، لأنهم قد وضعوا أيديهم في يدك.

باختصار، قد اتّحد الله ورسوله وأصبحا واحدًا، وكذلك كان سهماهما ينطلقان في جهة واحدة، وكان بصرهما يرتفع في جهة واحدة. ما أعظمَ هذا التجلي الذي تجلى به الله على محمد ﷺ! هل من مقارنة بين هذا التجلي الإلهي وبين التجلي الإلهي الذي ظهر لموسى عليه السلام؟

ثامن عشر: لقد أُعطيَ موسى عليه السلام كتابًا فقط، أما محمد ﷺ فقد أُعطيَ كلام الله تعالى بالإضافة إلى الكتاب. هناك فرق هائل بين الأمرين، ذلك أن الكتاب يعني الحُكْم (الأقرب)، والحُكْم الإلهي يمكن بيانه بكلمات البشر، أما كلام الله فلا يمكن تبديله؛ وبتعبير آخر، إن الكتاب لا يُشترط فيه الكلمات بعينها، أما كلام الله تعالى فيشترط فيه ألا تتغير كلماته تعالى.

كان من عادة الملوك العرب أن يتخذوا كبار الأدباء وزراء لهم، وكان عند مِلِكٍ وزيرٌ في لسانه لُكْنَةٌ، إذ كان لا يستطيع نطق الراء، بل كان يحوّلها إلى اللام، كما يفعل الصغار عندنا. فقال البعض للمِلِك: ما شأن هذا الأديب الذي اتخذتَه وزيرا، فإنه لا يقدر على نطق الراء، وسوف يفضحك هذا إذا ما جاء أحد الملوك لزيارتك. فقال الملك: إني لم أشعر بهذا العيب فيه مع أنه يجالسني دائما؟ فقال الرجل: سوف أثبت لك صدق ما أقول، أرجوك أن تملي عليه عبارة يتكرر فيه حرف الراء وسوف ترى ما ترى. فأنشأ المِلِك عبارةً ودعا الوزير للاختبار، وكانت العادة أن الكاتب ما كان يُعطَى شرفَ إملاء المِلِكِ عليه مباشرة، بل كان المِلِك يملي على الوزير، والوزير يملي على الكاتب، فقال المِلِك: اكتبْ: "أمَر أميرُ الأمراء أن يُحفَر بئرٌ في الطريق، ليشرب منه الوارد والصادر". فما لبث الوزير حتى أملى على الكاتب ما يلي: "حكَم حاكمُ الحكّام أن يُقلَب القليب في السبيل، لينتفع منه الصادي والبادي".

فذُهل المِلِك من براعة الوزير، أما المشتكي فقال للملك: انظرْ أيها الملك، إنه لم يستطع نطق الراء، فردّ عليه الملك: إن ما فعله صاحبي زادني إعجابًا به، هو لا يدل على عيب فيه، بل على براعته، إذ كيف صاغ أوامري في كلمات أخرى في لمح البصر. إنني لا أستطيع أن أتخلى عن نابغة مثله.

لقد ثبت من هذا المثال أن كلمات الحُكم يمكن أن يغيّرها السامع، وقد يخطئ عند نقله. وهناك اصطلاح عند المحدثين بأن هذا الحديث باللفظ وهذا الحديث بالمعنى، والحديث باللفظ عندهم هو ما بلغهم بالكلمات نفسها التي سُمع بها من فم الرسول ﷺ؛ ومثاله أن تكون هناك رواية قد نقلها أهل الشام بالكلمات نفسها التي

نقلها بها أهل بخارى ومصر بحيث نستطيع القول أنها الكلمات نفسها التي سُمعت من الرسول ﷺ، ومثل هذه الأحاديث النبوية تكون بكلمات قصيرة موزونة عادةً مما يساعد على حفظها بسهولة، كحديث الرسول ﷺ: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ (البخاري، كتاب الأيمان والنذور)، فحيث إن كلماته موزونة فيُحفَظ من دون صعوبة. إذن، فالحديث الذي وصلنا من مختلف الرواة بالكلمات نفسها يسمى حديثًا باللفظ، أما الحديث الذي يرويه الراوي بكلماته هو فهو حديث بالمعنى.

إذن، فالكتاب الذي أُعطيَه موسى عليه السلام هو بمعنى الحكْم، أعني أن الله تعالى أعطاه عليه السلام أحكاما، فحَفِظَ بعضها بنَصِّها وفَصِّها، وبيّن بعضها الأخرى بكلماته هو، فأُدرجت في التوراة. أما نبينا ﷺ فأُعطي كلام الله الذي أنزله عليه كله مِن أوله إلى آخره؛ مِن باء البسملة في الفاتحة إلى السين في ﴿النّاس﴾ آخرِ كلمة في القرآن، وليس فيه لفظ ولا حركة أدخلها النبي ﷺ من عنده، بل كله كلام الله. فما أعظمَه من فضل للرسول ﷺ على موسى عليه السلام! ليس بوسع يهودي ولا نصراني في العالم أن يحلف أن التوراة هي نفس الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام؛ وإذا لم يكن الأمر كذلك فليُهلِك الله أهلي وأولادي ويلعنني في الآخرة. وكيف يحلف وليست كلمات التوراة هي نفسها التي نزلت على موسى عليه السلام؟ ولكننا نستطيع أن نحلف اليوم وفي المستقبل أيضا بأن كلمات القرآن الكريم هي نفسها التي نزلت على نبيّنا ﷺ، إذا لم يكن الأمر كذلك فليهلك الله أهلي وأولادي ويلعنني في الآخرة.

فما أعظمَ ما فُضّل به الرسول ﷺ على موسى عليه السلام في هذا المجال أيضًا!

المعنى الثاني: بالإضافة إلى المعجزات والكرامات التي أتى بها موسى عليه السلام بحسب القرآن الكريم أو التوراة، والتي عقدنا من خلالها مقارنة بينه وبين نبينا ﷺ، وأثبتنا أن ما أُعطيَه نبينا ﷺ كان أكثرَ مما أُعطيَ موسى عليه السلام، فإن هناك سبيلا آخر للمقارنة بينهما وهو دعاءٌ لإبراهيم عليه السلام قد ورد في سورة البقرة؛ فإنه قد دعا في

حق النبي الموعود لبني إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٣٠).

الحق أن هذا الدعاء يذكُر واجباتِ الأنبياء وأعمالهم الخاصة، وقد أشار الله تعالى في سورة الكوثر إلى أن هذا الدعاء لم يتحقق في حق الرسول ﷺ فحسب، بل قد تحقّق بأروع صورة. فقد بيّن الله تعالى هنا أن محمدا ﷺ لم يقم بتلاوة الكتاب على قومه وتعليمهم الكتاب والحكمة وتزكيتهم فحسب، بل أُعطيَ الكوثر من كل صفة من هذه الصفات الأربع، وهكذا فُضِّل على الأنبياء كافة.

وعندي أن بعض آيات القرآن الكريم هي بمثابة المفتاح لغيرها من الآيات، إذ تساعد على كشف معانيها تمامًا، فالبسملة مفتاح مشترك بين جميع السور، كذلك هناك آية في كل سورة هي بمثابة مفتاح موضوع تلك السورة كلها. في أوائل شبابي طلب مني بعض الأصدقاء أن أعلّمهم القرآن، فلما بدأنا بسورة البقرة أُلقيَ في رُوعي أن مفتاح هذا السورة هو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٣٠). فطبّقتُ موضوعها على السورة كلها، فتبين لي أن موضوع كل السورة يتمحور حول هذه الآية. أما الآن فقد كشف الله عليّ أن سورة الكوثر جواب لدعاء إبراهيم هذا، حيث أخبر الله تعالى أنه لم ينجز بحق محمد ﷺ وَعْدَه الذي قطَعه مع إبراهيم فحسب، بل أعطاه ﷺ كوثرا من كل صفة من الصفات المذكورة في الدعاء الإبراهيمي. لقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلا: رب ابعثْ في أهل مكة رسولا يكون منهم لا من أمة أخرى. وكلمة ﴿رَسُولاً﴾ تدلّ على أن هذا الدعاء يتعلق بالمستقبل، إذ كان بينهم -عندما قام إبراهيم بهذا الدعاء- رسولان: إبراهيم وإسماعيل؛ فثبت أنه لا يصح هذا الدعاء إلا عن المستقبل، وإلا أفليس غريبًا أن يسأل الله تعالى ما هو موجود سلفًا. أما لو قال إبراهيم عليه السلام "رسلاً منهم" لقلنا إنه سأل الله تعالى أن يُبعث في أهل مكة رسول بعد رسول، ولكنه قال ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾، مما يعني الإشارة إلى بعثة رسول عظيم بينهم في المستقبل، كما يدل عليه التنوين على لفظ ﴿رَسُولاً﴾، فهذا التنوين يفيد

التعظيم. إذن، فالمراد من دعائه ﴿رَبَّنا وَابْعَثْ فيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾: رَبِّ ابْعَثْ بين ذرية إسماعيل رسولاً عظيما يكون منهم. لقد وعدتَ بني إسحاق بوعود، فلا تنسَ بني إسماعيل، بل ابعثْ فيهم رسولا عظيما منهم يقوم بالأعمال التالية:

أولاً: يتلو عليهم آياتك، وثانيا: يعلّمهم كتابك الكامل، وثالثا: ويعلّمهم الحكمةَ، أي يبيّن لهم حكمة الأحكام وفلسفتها، ورابعا: ويزكّيهم..أي يطهّر قلوبهم ويدلّهم على سبل الرقي المادي أيضا. ثم قال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَزيزُ الحَكِيمُ﴾.. أي رَبِّ أنت الغالب ذو الحِكَم، ومثل هذا السؤال ليس كبيرًا أمام غلبتك وحكمتك.

لقد ورد هذا الدعاء في الآية ١٣٠ من سورة البقرة، ثم ورد في السورة نفسها في الآية ١٥٢ قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.. أي قد أرسلنا فيكم رسولاً دعانا إبراهيم لِبعثته، ثم ذكر الله تعالى نفس الأمور التي طلبها إبراهيم في دعائه. لقد دعا قائلا: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِك﴾، فقال الله هنا: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾، ودعا: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، فقال الله هنا: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، ودعا: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فقال الله هنا: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. فكل ما سأله إبراهيم عليه السلام في دعائه مذكور هنا، مما يدل صراحة على أن الله تعالى قد أخبر هنا أننا قد استجبنا دعاءه، وقد جاء محمد مدّعيًا أنه جاء تحقيقًا لدعاء إبراهيم الذي ذكر فيه أربع واجبات: تلاوة آيات الله، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة، وتزكية النفوس. وبتعبير آخر، إن غرض بعثته ﷺ هو هذه الأهداف الأربعة العظيمة.

ولكن الواضح أن كل نبي يقوم بهذه المهام. فما الذي يمكنه أن يفعل غيرَ ذلك؟ فثبت أن إنجاز النبي ﷺ هذه المهام لا يدلّ وحده على أنه قد نال الكوثر، وإنما يثبت ذلك إذا أنجزها إنجازًا لا مثيل له عند الأنبياء الآخرين. إذا كان ﷺ قد قرأ عليهم آيات الله فلا شك أن الوعد الإبراهيمي قد تحقق، ولكنه إذا كان أكثر قراءة لها من الأنبياء الآخرين فثبت أنه قد أُعطيَ الكوثر. كذلك إذا علّمهم كتاب الله،

فلا شك أن الدعاء الإبراهيمي قد تحقق، ولكنه لو قرأ عليهم الكتاب قراءةً لا مثيل لها عند الأنبياء الآخرين لثبت أنه قد أُعطيَ الكوثر. وإذا علّمهم الحكمة فلا شك أن الوعد الإبراهيمي قد تحقق، ولكنه إذا علّمهم الحكمة تعليما لا نظير له عند الأنبياء الآخرين لثبت أنه قد أُعطيَ الكوثر. ثم لو قام بتزكية النفوس لثبت أن الوعد الإبراهيمي قد تحقق، ولكنه لو قام بتزكيتهم بما لا مثيل له في الدنيا لكان دليلا أنه قد أُعطيَ الكوثر. فإعطاء الله النبيَّ الكوثرَ يعني أنه لم يستجب دعاء ابراهيم بحقه ﷺ فحسب، بل أعطاه أكثرَ مما سأله إبراهيم وبما لا مثيل له عند أي نبي آخر.

باختصار، لقد بُعث النبي ﷺ تحقيقًا لدعاء إبراهيم عليه السلام ولذلك قال الله تعالى لرسوله عند ختام القرآن الكريم في سورة الكوثر: ألم نحقّق فيك دعاءَ إبراهيم؟ ألم نعطك كل ما سألَنا إياه؟ بل ألم نعطك إياه بما لم يُعطَه نبيٌّ آخر؟

إن دعاء إبراهيم عليه السلام هذا بالغ الأهمية، إذ هو الأساس لبعثة النبي ﷺ، ولذلك قد أكّد الله تعالى تحقُّقه في شتى آيات القرآن الكريم بعبارات مختلفة، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران:١٦٥). وقد ذكَر هنا الأمور الأربعة المذكورة في دعاء إبراهيم عليه السلام.

ثم قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة:٣).

كذلك ذكر القرآن الكريم أجزاءً من هذا الدعاء في آيات أخرى، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾(النساء:٥٥).. أي أن اليهود يحسدون أهل مكة على أن الله تعالى قد أعطاهم من فضله. لا شك أن بني إسحاق أولادُ إبراهيم، وقد أعطيناهم من فضلنا العظيم، ولكن أهل مكة أيضا من أولاد إبراهيم، فكيف لا يُنزل الله فضله عليهم؟ كان ينبغي لليهود أن يفرحوا على ذلك حيث خصَّ الله أسرتهم كلها بهذا الشرف، ولكنهم بدلاً من ذلك يحسدون أهل مكة على ما أعطاهم من فضله.

يجب أن يفكروا كم أعطيناهم من نعم لكونهم من آل إبراهيم، وما دام بنو إسماعيل أيضا من آل إبراهيم، فكان من المفروض أن يُعطَوا الحُكمَ كما أُعطي اليهود، فلماذا يغضبون إذا أعطينا بني إسماعيل من فضلنا؟

ومما يدل على أن الحديث هنا هو عن بني إسرائيل، أن الله تعالى قد ذكر قبل هذه الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا﴾(النساء:٥٢).. أي انظر إلى الذين أُوتوا نصيبا من الكتاب كيف يؤمنون بكل ما هو لغو ومِن تعليم الشيطان، فيقولون عن الكافرين بأنهم أهدى من المؤمنين، مع أن الكافرين مشركون وثنيون، وهؤلاء مؤمنون موحدون. ثم بعد ذلك يقول الله تعالى بأنه إذا كان قد أعطى بني إسماعيل مِن فضله فكان المفروض أن يفرح أهل الكتاب هؤلاء، لأن الله تعالى إنما خصّ أسرتهم بهذا الشرف العظيم، وليس أن يحترقوا حسدًا ضدهم.

وكذلك قد أشار الله إلى ما ورد في دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(النساء:١١٤). فهنا أيضا ذكر بوجه خاص إنزالَ الكتاب والحكمة على النبي ﷺ.

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾(الأحزاب:٣٥).

وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾(لقمان:٣).

وقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾(آل عمران:٥٩)

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾(يونس:٢)

ثم قال تعالى: ﴿يس* والقُرآنِ الْحَكِيمِ﴾.. أي نُقسم بالقرآن ذي الحكمة.

لقد تبين من هنا أن القرآن الكريم قد ذكر مرارًا أن لبعثة النبي ﷺ أربعة أهداف: ١: تلاوة آيات الله، ٢: تعليم الكتاب، ٣: تعليم الحكمة، ٤: تزكية الأمة. ثم أكد

القرآن الكريم مرة بعد أخرى أن النبي ﷺ قد أنجز هذه المهام كلها. لقد قلت قبل قليل إن الأنبياء كلهم يقومون بهذه المهام في نطاق عملهم، لذا يجب أن نرى الآن ما إذا كان النبيُّ ﷺ قد أُعطيَ الكوثرَ في هذه الصفات الأربع أم لا.

أولاً: تلاوة الآيات

اعلمْ أن كلمة ﴿آيَاتِكَ﴾ هنا يمكن أن تكون إشارةً إلى أمرين، ١: الأمور العقلية التي تهدي إلى الله أو إلى صفاته، ٢: المعجزات التي يُريها الله تعالى تكريمًا لعباده الأطهار. وأرى أن الأمرين كليهما مقصود هنا.. أعني أن الله تعالى قد أشار هنا إلى البراهين العقلية التي تهب معرفة الله، وأيضا إلى المعجزات والآيات التي يُريها الله تعالى.

الأمر الأول: وفيما يتعلق بمعرفة الدين (الله)، فلا بد لها من الأمور التالية:

١: إثبات وجود البارئ تعالى. إن أساس الدين هو الله تعالى، فمن واجب كل دين أن يأتي ببراهين تزيد المرء يقينًا بذات الله تعالى.. أي أن يخبر ما إذا كان الله موجودا، وما هي الأدلة على وجوده.

٢: الشرح الصحيح لصفات الله وما بينها من علاقة، فمجرد القول إن الله تعالى متصف بشتى الصفات لا يغني الإنسان شيئًا، بل لا بد مِن بيان صفات الله تعالى كلها والأدلّة عليها، وهذا واجب الدين.

٣: الملائكة

٤: الأنبياء

٥: القضاء والقدر

٦: البعث بعد الموت.

فلو جعلنا صفات الله تعالى تابعة للحديث عن ذاته تعالى فهي خمس قضايا، وإلا فهي ست، وهي أهمّ ما في الدين. والحق أن ما يعلِّمه الإسلام بشأنها لم يعلّمه أي دين آخر، مما يميز الإسلام على الأديان كلها.

١: إن أعظمَ ما في الدين هو وجود البارئ تعالى. إننا لا نقول أنه لا ذِكْرَ لله تعالى في الصحف السابقة. ما دام الله تعالى هو أساس الدين، فكيف يمكن أن يقوم

ويستمر دين يخلو من ذكره تعالى؟ ما دمنا نعتبر الكتاب المقدس والزندافستا والفيدا وغيرها من الكتب صحفًا سماويةً فلا بد أن تتحدث عن الله تعالى. غير أنه ينبغي أن نرى فيما إذا كانت هذه الكتب قد قدّمت الأدلة على وجود البارئ أم لا؟ ذلك أن مجرد القول بوجود الله تعالى لا يهب اليقين بأنه موجود فعلاً، أو أنه متصف بصفات كثيرة. إن هذا بحاجة إلى براهين شتى، وتقديمها من واجبات الكتاب السماوي. والواقع أن الكتب السماوية لا تقدّم هذه الأدلة، ما عدا القرآن الكريم. لا شك أنك إذا سألت أحد الهندوس فسوف يقدم لك بعض الأدلة على وجود الله تعالى، وكذلك المسيحي سوف يقدِّم شيئًا بهذا الصدد، ولكنك إذا سألتَ أيًّا منهما فيما إذا كان كتابه السماوي يقدّم هذه الأدلة أم لا، فلا بد له من الاعتراف أنها لا توجد في كتابه، إنما يقدّمها مِن عنده. فتقديمه هذه الأدلة من عنده دليلٌ بيّنٌ على أن الله تعالى لم يعطِ أتباع هذه الأديان الكوثرَ، بل هم الذين أعطوا اللهَ الكوثرَ. أما كتابنا "القرآن الكريم" فلا يقدّم أيَّ دعوى إلا ويسوق الأدلة عليها، وهذا هو الفرق العظيم الذي يميز القرآن عن الصحف الأخرى. إن القرآن لا يعلن للناس أن الله موجود فحسب، بل يقدّم لهم البراهين الدالة على وجوده تعالى، والتي لا يسع أحدًا من أصحاب الفطرة السليمة إنكارُها، أما الكتب الأخرى فلا تقدّم الأدلة على وجود البارئ تعالى.

والحال نفسه بالنسبة إلى صفات الله تعالى: فمجرد قولهم إن ربنا رحيم كريم محسن لا يقدّم صورة صحيحة لصفات الله تعالى، إذ من الممكن أن يكون قولهم هذا مجرد نتيجة تأثير الأفكار الشائعة؛ فمثلا إذا وجد هؤلاء أن الناس يحبّون الكريم الجواد قالوا إن الله كريم، وإذا رأوا أن الإحسان محمود قالوا إن ربنا محسن. إن المطلوب من الدين أن يقوم بشرح سليم لصفات الله تعالى ويوضّح ما بين صفة وأخرى من علاقة؛ فمثلا تخبرنا التوراة أن الله يقول إنه سيعاقِب، ولكنها لا تبين الحكمة من وراء العقوبة. ثم إنها لا تبين كيف يوصف الله تعالى بأنه رحيم مع أنه يعاقِب؟ إذا كان رحيما فكيف يقال إنه يعاقب؟ التوراة صامتة بشأن ما بين هاتين الصفتين من علاقة. إنما القرآن هو الذي ساق لنا الأدلة مفصّلة على وجود البارئ،

كما أمدّنا بعلم مفصّل عن صفاته تعالى. وإنني أتحدى أتباع الأديان الأخرى أن يقدّموا من كتبهم دليلا واحدا على وجود الله تعالى، ولن يستطيعوا ذلك أبدًا. وإذا كانوا يقدّمون الأدلّة على وجود البارئ تعالى من عند أنفسهم لا من كتابهم، فهذه مِنّةُ العباد على الله تعالى لا العكس.

٢: أما الملائكة فلا شك أن الصحف الأخرى تذكُرها، أما السؤال: لماذا خلقها الله وما أعمالها وما نوعية علاقتها مع الله ومع العباد.. فالكتب الأخرى لا تلقي أي ضوء على ذلك، بل لم تمسّ هذه القضيةَ مطلقا. إنما القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لا يأمر بالإيمان بالملائكة فحسب، بل يبين أيضا لماذا خلَقها الله تعالى، وما الحاجة إليها مع قدرة الله على فعل كل شيء، وما هي أعمالها، وما الأدلة على وجودها، وما علاقتها مع الله ومع العباد.

٣: أما النبوة فكل الأمم تؤمن بها، فالهندوس مثلاً يذكرون مجيء "أَوْتار"● عندهم، ويقول العراقيون القدامى بمجيء الأنبياء، ويعلن اليهود والنصارى بأن الله تعالى قد بعث الأنبياء، لكن الغريب أن هذه الأديان مع ادعائها هذا لا تلقي أي ضوء على النبوة، مع أن ورود كلمة نبي أو "أَوتار" في كتاب لا يشفي غليل الإنسان، وكيف يطمئنّ ما لم يبيَّن له بالتفصيل مَن هم الأنبياء، وما أعمالهم وصفاتهم، وما أهداف بعثتهم، وعلامات صدقهم، وإلى أي مدى تجب طاعتهم، وما هو مقامهم، وما علاقتهم مع الله ومع العباد؟

ذات مرة أرسلتُ رسائل مسجّلة إلى اليهود والنصارى ليعرِّفوا لي النبوّة مِن كتبهم، ولكن لم يفعل ذلك أيٌّ منهم، بل اعترف قسيس كبير من لاهور بأن كُتب دينه صامتة بهذا الصدد تماما.

● "أوتار" بمعنى النبي، فالعقيدة الهندوسية تقول أن الله تعالى يأتي إلى الدنيا لإصلاح الخَلق متقمصًا في صورة إنسان يسمّى "أوتار". (المترجم)

ما أعظمَ فضلَ القرآن على سائر الكتب بهذا الصدد! إن القرآن كتاب صغير الحجم مقارنةً بالكتب الأخرى، ومع ذلك قد احتوى كل القضايا الضرورية الهامة. دعوا الأمور الأخرى جانبًا، فلو فكَّرتم في كلمة النبي لعرفتَم مهمة الأنبياء بسهولة. هناك كلمتان في العربية: رسول ونبي.. وفيهما بيانٌ كافٍ لأعمال المبعوثين من الله تعالى، فالرسول يعني المرسَل، والنبيّ يعني مَن يدلي بأنباء عظيمة. لقد خاض المسلمون لسوء حظهم في نقاش لا طائل فيه وقالوا بأن الرسول هو غير النبي، مع أنهم لو تدبّروا هاتين الكلمتين لما خاضوا هذ النقاش العقيم. فهل يعقل أن الذي يدلي بأخبار هامة لا يكون مرسَلاً من عند الله؟ إذا لم يكن أحد مرسلاً من عند الله تعالى فماذا عسى أن يخبر به؟ وإذا كان أحد مرسلا من عند الله تعالى فهل يأتي ويجلس صامتًا؟ كلا، لا بد أن يدلي ببعض الأنباء. الواقع أن النبي والرسول اسمان يطلقان على المبعوث الرباني من منظوريْن مختلفين، فهو يسمَّى رسولاً من حيث إن الله بعثه برسالة، ونبيًا من حيث إنه يبلّغ الناسَ هذه الرسالة. فهل يمكن لساعي البريد أن يتسلم البريد ثم يجلس في بيته قائلا: لقد أديت واجبي؟ ألا يقول له مسئوله: لماذا تجلس في البيت الآن؟ لقد أُعطيتَ البريد لتوزيعه على الناس لا لتضعه في الكيس وتغلقه. كذلك أيجلس مَن يرسله الله تعالى في بيته مطمئنا، أم يبلّغ الناس رسالةَ الله؟ فإذا بلَّغها أصبح نبيًّا، وإذا لم يبلّغها فهو ليس بنبي، بل هو كذّاب. كذلك إذا ادّعى أحد أنه نبي، ولكنه ليس مرسَلا من الله، فهو أيضا كذاب، وإذا كان صادقًا فلا بد أن يكون مرسلا من الله. فالرسول والنبي ليسا شخصيتين منفصلتين، بل هما اسمان لشخص واحد من منظورين مختلفين.

المهم، لقد تناول القرآن الكريم كل قضية ببيان مفصل تطمئن به النفس. إنه لم يكتفِ بتقديم تعريف النبي فقط، بل استفاض في بيان الغرض من بعثة الأنبياء، وواجباتهم وعلامات صدقهم، ونوعية علاقتهم بالله وبالناس، وخصوصياتهم.

٤: أما القضاء والقدر، فإن كل الكتب السماوية صامتة بصدده إلا القرآن الكريم. فلو سألت أتباع الأديان الأخرى عن القضاء والقدر لم يستطيعوا إلقاء الضوء عليهما من كتبهم السماوية، مع أنها قضية بالغة الأهمية ووثيقة الصلة

بالروحانية. غايةُ ما يقولون لك هو: لا خيار لنا فيما نعمل، وإنما تصدر منا الأعمال كما يريد الله ويشاء، وهذا هو القضاء والقدر. مع أن الواقع عكس ذلك، إذ لا نشعر في الدنيا أن أحدًا يتدخل في أعمالنا ويُكرِهنا على القيام بها. فكيف يصح القول بأن الله يكرهنا على ما نعمل؟ إذا كان الله تعالى يجبرنا على ما نفعل، فما الدليل على ذلك؟ وهل يمارس هذا الجبر في جميع أعمالنا أم في بعضها؟ فإذا كان يكرهنا على بعضها ولا يكرهنا في بعضها فكيف نعلم أنه قد تدخل في هذا العمل و لم يتدخل في ذاك؟ لو قلنا إنه يُكرهنا على كل عمل نقوم به، فإن السارق سيقول بكل بساطة: إن الله هو الذي قد أجبرني على السرقة، وسيقول الغشّاش إن الله هو الذي قد أجبرني على الغشّ. أما إذا قلنا إن الله تعالى لا يتدخل في أعمالنا مطلقًا، لصار كل ما نقوم به من عبادات وأدعية لله تعالى عبثًا. إذن، فلم يبق أمامنا إلا أن نقول: إن الله تعالى يتدخل في بعض أمورنا ولا يتدخل في بعضها، وإذا صحّ ذلك فمن واجب الدين أن يبين لنا الأمور التي يتدخل فيها والأمور التي لا يتدخل فيها، وإلا لاشتبهَ الأمر على الناس و لم يعرفوا الأمور التي هم أحرار فيها والأمور التي هم خاضعون فيها لقدر الله تعالى. في إحدى المرات جاء شخص إلى المسيح الموعود عليه السلام وقال إن عيسى عليه السلام كان يخلق الطيور، فبيّن له حضرته أن هذه العقيدة مخالفةٌ للقرآن الكريم، ولكنه رفض وظلّ مصرًّا على موقفه، فقال له: حسنًا، إذا كان المسيح عليه السلام يخلق الطيور، فأين ذهبتْ طيوره التي خلَقها؟ قال: لقد اختلطتْ بالطيور التي خلَقها الله تعالى (تحفة غولروية، الخزائن الروحانية ج١٧ ص٢٠٦). فلو أن الله تعالى لم يبين مدى تدخُّله في أفعال الناس لاشتبهت عليهم حقيقة أعمالهم كلها، لذا فمن واجب الدين أن يبين الأمور التي يتدخل الله فيها والتي لا يتدخل فيها. والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي قد تناول هذا الأمر بالبيان، أما سائر الكتب فهي صامتة في بيان معنى القضاء والقدر، والعلاقة بين القدر والتدبير، وما هو الغرض من القدر، وأن القدر لا يعني الجبر والإكراه، وكيف أن الإنسان يظلّ حرًّا في أعماله رغم القدر، وأنه لا يُعاقَب إذا لم يكن حُرًّا في عمله، وما هي دائرة القضاء والقدر. إن القرآن الكريم وحده يلقي الضوء على

هذه الأمور، وإذا ادعى أحد من أتباع الأديان الأخرى أن كتابه السماوي يتضمن التعاليم الصحيحة عن القضاء والقدر، فإننا نتحداه أن يُبين هذه القضية الهامة بناءً على ما ورد في كتابه إزاء ما بيّنه القرآن الكريم، ولكنا على يقين أن لا أحد منهم يستطيع بيانها من كتابه السماوي. وهذه إحدى المزايا التي يفضُل بها القرآن الكريم على الصحف الأخرى.

٥: أما البعث بعد الموت فإن الكتب الأخرى إما صامتة عنه؛ مثل الكتاب المقدس والفيدا، أو تذكر شيئًا من تفاصيله من دون أن تذكر الأدلة عليه، ولا الحِكَم وراءه، ولا هدف الحياة الآخرة، ولا غرض الجزاء والعقاب ولا الحكمة فيه. لقد تناول الزندافستا موضوع الحياة الآخرة إلى حد ما، أما الكتاب المقدس والفيدا فكلاهما صامت بشأنها. إذا قرأت ما ورد في الزندافستا عن الجنة والنار خُيّل لك أن هناك صلة وثيقة بين القرآن الكريم والزندافستا، بينما لا تجد أيّةَ مشابهةٍ بينهما في بيان قضية الحياة الدنيوية؛ بل القرآن الكريم أكثرُ شَبَهًا بالكتاب المقدس بهذا الشأن. أما فيما يتعلق بالحياة الآخرة، فإن القرآن أشبهُ بالزندافستا. المهم، إن هذين الكتابين لا يبيّنان الفرقَ بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، ولا الحكمةَ في الجزاء والعقاب، ولا قواعدهما، أما القرآن الكريم فقد ساق الأدلة على البعث بعد الموت، وبيّن حكمته، وهدف الحياة الآخرة، وغرض الجزاء والعقاب والحكمةَ فيهما، والتفاصيل الصحيحة عن الجنة والنار.

فالكوثر الذي أُعطيَه النبي ﷺ في تلاوة آيات الله على الناس وبيانها لهم، هو من الحقائق الثابتة، ويمكن أن نبيّنه بشكل دقيق، ويمكن إثبات فضل الإسلام على كافة الأديان الأخرى وفضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء في هذا المجال.

الأمر الثاني: لقد بينت من قبل أن قوله تعالى ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ إشارةٌ أيضًا إلى المعجزات والآيات التي تحوّل البراهين العقلية على معرفة الله إلى المشاهدة واليقين الكامل. ونثبت الآن أن القرآن الكريم إذ برهنَ على القضايا الدينية الهامة بالدلائل العقلية والنقلية، فقد أثبتها بتقديم المعجزات والآيات أيضًا، التي برؤيتها

والتدبر فيها يتحول عِلْمُ الإنسان النظريُّ والعقليُّ إلى علم العين واليقين، مما يدل دلالة واضحة على فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء.

إن أكبر معجزة أُعطيَها النبي ﷺ هو كونه خاتم النبيين، أي قد خُتمتْ به كمالات النبوة كلها. فختم النبوة عليه ﷺ ليس مجرد دعوى كما يظن عامة المسلمين، بل هي حقيقة ثابتة يمكن أن يلمسها الناس ويختبروها في أي عصر كآية على صدق النبي ﷺ. إن معنى ختم النبوة كما هو شائع بين العامة قد يكون حجةً على الناس يوم القيامة، أما قبْلها فلا يمكن أن نُقنِع به أيًّا من غير المسلمين. فمثلاً لو قيل لليهود والنصارى في حياة النبي ﷺ إنه خاتم النبيين بمعنى أنه لن يأتي بعده نبي، فماذا عسى أن يقدمه لهم المسلمون من دليل على صدق دعواهم؟ وكيف يصدق الخصوم هذه الدعوى؟ البديهي أن وجه الفضْل إنما هو ما يمكن إثباته، أما ما لا يمكن إثباته فكيف يُعتبر فضلا؟ وختم النبوة هو أكبر فضل للنبي ﷺ على سائر الأنبياء بحسب عقيدة المسلمين؛ وإذا لم نستطع إثبات هذه الدعوى فكيف يثبت فضْله ﷺ؟ فلو قال الصحابة لليهود والنصارى إن نبيّنا أفضل الأنبياء لأنه لن يأتي بعده نبي، لضحكوا عليهم وقالوا لهم: أوّلاً، إنكم تؤمنون بأنفسكم بعودة المسيح، وثانيا: كيف تقومون بهذه الدعوى و لم يبعث نبيّكم إلا البارحة؟ ألم تعلموا أن النبي لم يكن يُبعث بعد النبي فورا، وإنما كان الأنبياء يُبعثون على فترات عادةً، فقد بُعث نبيكم بعد المسيح بستة قرون، فلننتظرْ ستة قرون. فماذا عسى أن يردّ به المسلمون على هؤلاء يا ترى؟ مما يعني أن إثبات المفهوم التقليدي لختم النبوة كان سيتطلب انتظار ستة قرون.. وبتعبير آخر: لظلّتْ دعوى ختم النبوة من دون دليل طيلة تلك القرون الستة. والحق أنه ما كان بوسع المسلمين أن يثبتوا دعواهم هذه بعد تلك القرون أيضا؛ لأن اليهود والنصارى كانوا سيواجهونهم بقولهم: ما رأيكم بالنبي القادم الذي تسمّونه مسيحا؟ كما كان بوسعهم أن يقولوا للمسلمين: لقد بُعث يوشع بعد موسى ببضع سنوات، أما موسى فقد بُعث بعد يوسف بقرابة ثلاثة قرون، ومن أجل ذلك نجد أن بني إسرائيل أخذوا يقولون بعد يوسف لطول الفترة التي لم يبعث لهم فيها نبي: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا﴾(غافر:٣٥)، مما يعني

أن النبي كان يُبعث بعد وفاة النبي فورًا حينًا، وحينًا بعد فترة طويلة، بل قد جاء نبيكم بعد المسيح بستة قرون حسب دعواكم، فإذا كان الله تعالى لم يبعث في هذه القرون الستّة أي نبي فهذا ليس دليلا على أنه لن يبعث بعد محمد أي نبي إلى يوم القيامة. لا شك أنه لن يأتي بعد النبي ﷺ أي نبي تشريعي، ولكن ليس بوسعنا أن نثبت بالمفهوم التقليدي لختم النبوة فضْلَ النبي ﷺ على الأنبياء الآخرين أمام الخصم إلى يوم القيامة؛ وهكذا سيظل فضْل ختم نبوة الرسول ﷺ خفيًا إلى يوم القيامة، مع أنه أكبر فضل له ﷺ على سائر الأنبياء. أما إثبات فضْله هذا يوم القيامة فلن ينفع أحدًا شيئا.

أما إذا قلنا: إن المراد من كونه ﷺ خاتم النبيين هو أن النبي في الماضي كان يقضي على تعاليم أنبياء أمة واحدة فقط، أما الرسول ﷺ فقد قضى على نبوّات أنبياء جميع الأمم في العالم كله، فهذه دعوى يمكن إثباتها منذ أول يوم بما لا يبقى معها مجال شبهة؛ ذلك أن علامة النبي الصادق بحسب الكتب السابقة والقرآن الكريم والعقل إنما هي أن يكون على صلة مع الله تعالى وأن يكون أتباعه من خلاله على صلة مع الله، مما يشكل حجة قاطعة على المنكرين بأنه صادق في دعواه وأنه مبعوث من عند الله تعالى. إذا كان هذا الدليل صحيحا -وهو صحيح بما لا يحوم حوله شك ولا شبهة- فإن المسلم يستطيع أن يتحدى أتباع الأديان كلها منذ أول يوم ويقول إن الدليل على كون نبينا خاتم النبيين هو أنه قد أنهى نبوّات الأنبياء كلهم، فلا يمكن أن يحظى أيٌّ من أتباع أمم الأنبياء السابقين بوصال الله تعالى، بل إن أتباع النبي ﷺ وحدهم الذين سيحظون بوصال الله تعالى بطريق مباشر. وجواب منكري الإسلام لا يخلو من أمرين: فإما أنهم سيقولون: إن الوصال المباشر بالله محال، أو يقولون بأنه لا يزال عندهم أناس يحظون بوصال الله تعالى مباشرة، والأمر محسوم بسهولة في كلتا الصورتين. فإذا أجابوا بالجواب الأول فسوف يقدّم المسلمون الآياتِ التي منَّ بها الله على أخيار هذه الأمة تدليلاً على أن أفرادها يحظون بوصال الله تعالى مباشرة، ولما كان الخصوم يعتبرون باب وصال الله مسدودا الآن، فيثبت أيضًا أن الله تعالى يتصل بجماعات أنبيائه مباشرة حتما، ولكن

لا يحظى بوصاله الآن إلا أفراد أمة محمد ﷺ دون غيرها، مما يدل على أن نبوّات الأنبياء السابقين قد انتهت، وأن نبوة محمد ﷺ هي الجارية، وثبت بالتالي أنه خاتم النبيين. أما إذا ادعى الخصوم بوجود رجال في أممهم يحظون بوصال الله تعالى، فسوف يطالبهم المسلمون بتقديم ما منَّ الله به عليهم من وحي وإلهام ليُعرف صدقهم من كذبهم، وحيث إن الله تعالى قد قطَع بعد بعثة النبي ﷺ اتصاله المباشر مع أتباع الأديان الأخرى كلها -إلا الاتصال الذي يكون مؤقتا فقط- فلن يستطيعوا أن يحققوا هذه المطالبة، وهكذا أيضا يثبت أن النبي ﷺ هو خاتم النبيين.

وهذا المعنى الذي ذكرتُه ليس مجرد دعوى، بل هو آية بيّنة؛ ذلك أن الدعوى المجردة هي ما يقدّمه المرء بدون أن يكون عليه دليل خارجي، أما الآية البينة فيوجد عليها دليل خارجي. ومفهوم ختم النبوة الذي ذكرتُه آنفا، فدليله موجود في الخارج بين المسلمين وكذلك بين الأمم الأخرى. إنه موجود بين المسلمين بشكل إيجابي وبين غيرهم بشكل سلبي.

والمفهوم الثاني لختم النبوة هو كمالها، وهذا هو المعنى المتبادر من الآية، لأن الخاتم قد ورد فيها بفتح التاء، أي أنه يعني الختم والطابَع. والختم يفيد التصديق، وخاتَم النبيين يعني أنه ختْمُهم.. أي طابَعُهم.. بمعنى أن من المحال أن تثبت نبوة نبي إلا بتصديقه ﷺ. وهذا المعنى أيضا ثابت في كل حين وفي كل عصر. فهو ثابت بالنسبة إلى الأنبياء السابقين من حيث إنه لا تثبت نبوةُ أيّ منهم من دون شهادة القرآن؛ فمستحيلٌ إثبات صدق المسيح عليه السلام من الإنجيل، وموسى عليه السلام من التوراة، وكرشنا ورام تشندر من الكتب الهندوسية، وزرادشت من الزندافستا، إنما هي البراهين والآيات القرآنية التي تدل على صدق هؤلاء الأنبياء جميعًا. أما النبي الذي يُبعث بعد محمد ﷺ، فهو ختْمُه.. أي أن من المحال أن ينال أحد درجة النبوة من دون اتّباعه والارتباط به ﷺ.

ولو قال قائل: كيف يكون هذا محالاً؟ فالجواب أن القرآن الكريم يقف دليلاً حيًا على ذلك. إنما يأتي النبي المستقلّ إذا تطرق الفساد إلى كتاب النبي السابق، ولكن القرآن الكريم محفوظ بكلماته وتأثيراته منذ أول يوم. أما حفظ كلماته

فالخصوم أيضا يعترفون بذلك، وأما تأثيراته فيشهد عليها وجود الصلحاء والروحانيين في الإسلام في كل وقت وعصر، الذين يسمى الواحد منهم مجدِّدًا حينًا، ونبيًا تابعًا حينا، ووليًا لله حينا، وكلهم يعترفون باتّباع النبي ﷺ، فأي دليل أكبر من ذلك على ختم نبوة الرسول ﷺ؟

باختصار، إن ختم النبوة هو أكبرُ آية على فضل الرسول ﷺ على سائر الأنبياء، والذي هو ثابت له دومًا بحسب المفهوم الذي بينتُه، ويمكن إثبات صدقه أمام الخصوم في كل حين، كما نثبته أمامهم دائما.

والآية الثانية التي أظهرها الله تعالى للنبي ﷺ هي أنه بوّأه ذلك المقامَ الأسمى الذي وصفه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى﴾، فنبيُّنا ﷺ هو الوحيد الذي تجلّى الله عليه بتجلّيه الكامل.

ثم هو النبي الوحيد الذي قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(آل عمران:٣٢).

ثم قال الله تعالى في بيان مكانته العظيمة ﷺ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء:٧٠). فما أعظمَ المنّةَ التي مَنَّ بها الله على رسوله ﷺ؛ إذ وعد الذين يتّبعونه بالنبوة والصدّيقية والشهادة والصالحية. والحق أن الأعظم هو مَن يعمل تحته عظماء. يا ترى، ما هو الفرق بين مدرّس الابتدائية والبروفيسور الذي يعلِّم طلاب الماجستير؟ إنما الفرق أن هذا المدرّس يعلِّم صغار الطلاب، أما البرفيسور فيعلّم طلابا كبارا يدرسون الماجستير. إنهما يشتركان في الاسم، إلا أن أحدهما أكبر درجةً لأن تلاميذه كبار، والآخر أصغر درجة لأن تلاميذه صغار. كذلك الأنبياء فهم سواسية في التسمية، إلا أن الأعظم بينهم من كان أتباعه ذوي كفاءات عُظمى. وإلى هذه الحقيقة نفسها قد أشار الله تعالى هنا وقال بأن الذين يطيعون اللهَ والرسولَ.. أي محمدًا ﷺ.. فسوف يُدخلهم الله في الذين أنعم عليهم بنِعَمه الخاصة.. أي يجعلهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وما أحسنَ هؤلاء الرفقاء! وكأن الله تعالى يقول هنا بأن تلاميذ محمد ﷺ سيكونون من الأنبياء

والصدّيقين والشهداء والصالحين. أما تلاميذ الأنبياء الآخرين فلم يستعمل الله تعالى في حقهم كلمة الأنبياء، بل قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾(الحديد: ٢٠).. فلم يقل الله تعالى هنا: "والرسول"، بل قال: ﴿وَرُسُلِهِ﴾، إشارةً إلى الرسل السابقين.. فتبين أن الأتباع الكاملين للرسل السابقين كانوا ينالون درجة الصِدّيقين والشهداء فقط لا درجة الأنبياء. إذن، فإن الله تعالى قد فضَّل النبي ﷺ على الأنبياء السابقين بأن أتباعه الكُمَّل يمكن أن ينالوا نعمة النبوة أيضًا، أما أتباع الأنبياء السابقين فلم يبلغوا إلا درجة الصديقية والشهادة. ومن الأدلة على ذلك قول النبي ﷺ: "لو كان موسى وعيسى حيّينِ لما وسِعهما الا اتّباعي." (اليواقيت والجواهر ج٢ ص ٣٤٢)

باختصار، لقد فضَّل الله نبيه ﷺ على الأنبياء السابقين بأن تلامذته الكُمّل يمكن أن يبلغوا درجة النبوة، ولكنها نبوة ظلية بروزية.. أعني أنهم -مع كونهم أنبياء- يظلون تلاميذه التابعين له تمامًا.

يعترض البعض بأننا -نحن المسلمين الأحمديين- نسيء إلى النبي ﷺ إذ نشرك معه الآخرين في اسم النبوة. والحق أن منشأ هذا الاعتراض هو قلّة التدبر؛ فإننا نرى في الدنيا أن الأستاذ وتلميذه أيضًا يكونان حائزين على شهادة الماجستير، ولكن هل يستويان درجة؟ ألا نرى أن عميد الكلية والأساتذة الآخرون بل تلاميذهم أيضا يكونون حائزين على شهادة الماجستير، فهل في ذلك إساءة إلى العميد أو الأساتذة؟ الحق أنه كلما ازداد عدد تلاميذ الأستاذ الحاصلين على شهادة الماجستير ازداد عظمةً رغم اشتراكهم معه في الظاهر. فالاشتراك في الاسم لا يعني شيئا، إنما الاعتبار بالدرجة. ونحن نؤمن أن لا أحد يستطيع أن يسبق النبي ﷺ درجةً، فإنه سيظل تابعا له مهما نال من مقام. فإذا كان أحد من تلاميذ النبي ﷺ قد نال درجة النبوة ببركة اتّباعه ﷺ، فهذا يكشف عظمته أكثرَ ولا يسيء إليه أبدا، تماما كما أن حصول تلاميذ عميد الجامعة على شهادة الماجستير لا يسيء إليه بل يزيده رِفعة؛ إذ يقال إن من يعلّمه هذا العميدُ ينال درجة الماجستير.

باختصار، إن تلامذة النبي ﷺ يمكن أن يصبحوا أنبياء، أما تلامذة الأنبياء الآخرين فلا يبلغون إلا درجة الصِّدّيقية والشهادة. وهذا من أكبر ما يميّز النبي ﷺ على الأنبياء الآخرين.

ثانيا: تعليم الكتاب

والآن نتناول الجزء الآخر من دعاء إبراهيم عليه السلام وهو ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾. اعلمْ أن الأنبياء نوعان: أنبياء تشريعيون، وأنبياء غير تشريعيين، وكلهم يقومون بتعليم الكتاب، غير أن التشريعيين منهم يأتون بكتاب جديد، أما غير التشريعيين فلا يأتون بكتاب جديد. وكان النبي ﷺ نبيًا تشريعيا، وكان بلا شكٍّ أفضلَ من الأنبياء أجمعين بنوعيْهم، ولكننا نعقد المقارنة هنا بينه وبين الأنبياء التشريعيين، فإذا ثبت أنه أفضل منهم ثبت تلقائيا أنه أفضل من غيرهم أيضًا، لأن غير التشريعين أدنى درجة من الأولين.

والأنبياء التشريعيون الذين بُعثوا قبل بعثة النبي ﷺ هم اثنان بحسب القرآن الكريم وهما: نوح وموسى عليهما السلام. وكتاب موسى، وهو التوراة، موجودٌ، أما كتاب نوح فغير موجود، وكل ما ذكره القرآن بهذا الشأن عن نوحٍ هو: ﴿وإنْ مِن شيعَتِهِ لإبْراهِيم﴾(الصافات:٨٤).. أي كان إبراهيم من جماعة نوح عليهما السلام. كان نوح صاحبَ شريعة، وكان إبراهيم تابعًا لشريعته. أما داود وزكريا وسليمان ويحيى -عليهم السلام- فكانوا كلهم تابعين لشريعة موسى. وإضافةٍ إلى ذكر هذين النبيّين التشريعيين فقد بين الله تعالى لنا في القرآن الكريم مبدأً هامًا وهو: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٥).. أي ليس هناك قوم إلا وجاء فيهم نبيّ. فلو جاءنا اليوم شخص وقال لنا: إن فلانا كان قد بُعث نبيًّا في الدنيا وأحوالُه مشابهة لأحوال الأنبياء -اللهم إلا بعض القصص الخرافية التي تنسج وتضاف إلى الحقائق عادة- وقلنا له إنه ليس نبيا، لخالفْنا تعليم ديننا في الواقع. فمثلاً لو جاءنا هندوسي وقال إن "الفيدا" كتاب أنزله الله تعالى، وقد بُعث فينا أيضا أنبياء، أو قال كان "رام تشندر" نبي الله، أو قال كان كرشنا نبيا وكتابه "گيتا" موجود حتى اليوم وهو يحتوي على بعض ما أُوحيَ إليه، فكذّبْناه، أو جاءنا أحد البوذيين وقال: لقد

جاء في الهند نبي باسم بوذا، وكان الله يكلّمه، فكذَّبناه وقلنا إن كل هؤلاء كانوا كذّابين وخدّاعين، فإن هؤلاء سيُخرجون لنا هذه الآية من القرآن الكريم ويقولون إن كتابكم يعلن أنه قد جاء في كل أمة نبيٌّ، فأخبِرْونا الآن أيُّ نبي بُعث في الهند ما دمتم تنكرون كون كرشنا ورام تشندر وبوذا أنبياء الله؟ إذا أنكرنا كون هؤلاء أنبياءَ، فمِن أين نأتي بأنبياء آخرين في الهند، إلا أن نعترف بجهلنا. إنهم سيقولون لنا حتمًا إن كتابكم يدّعي أن الله تعالى قد بعث أنبياءه في كل بلد وفي كل قوم، فما الدليل على صحة هذه الدعوى؟ ولا شك أن هذا السؤال سيلقينا في ورطة، فإما أن نُصِرَّ على الإنكار مكابرةً، أو نضطرّ لفعل ما فعله أحد الأفغان؛ يُحكى أن أفغانيًا اشترى حبّات من الشمام، فوجد أنها ليست جيدة بل طعْمها مُرٌّ، فاستشاط غضبًا وبال عليها، ثم ذهب يعمل. وبعد حين شعر بالجوع فرجع إلى الشمام وأخذ حبة منها وقال في نفسه: هذه لم أبُلْ عليها، ثم أكَلها. ولم يزل يأتي بعد كل فترة ويأكل حبةً من الشمام حتى بقيت واحدة، فشعر بقرصات الجوع فقال: الحبات التي أكلتُها هي التي بُلْتُ عليها، أما هذه فلم أبُلْ عليها، فأكَلها أيضا. فلو رفضنا هؤلاء الأنبياء باعتبارهم كذّابين فيقول لنا المعترض: فمن ذا الذي بُعث في الهند إذن؟ فهل عندنا أي خيار إلا أن نقول له: نعمْ، كان رام تشندر وكرشنا وبوذا كلهم أنبياء الله تعالى. وما دمنا نضطرّ لتصديقهم في الأخير، فلماذا لا نقول بنبوتهم من البداية؟

وفيما يتعلق بكرشنا ورام تشندر، فإن صوفية الإسلام والأولياء قد شاهدوا بعض الرؤى التي تدل على كونهما من أنبياء الله تعالى. فقد ورد أن شخصًا جاء إلى حضرة "مَظْهَر جان جانان" -وهو أحد كبار أولياء الله في الهند- وقال له: إن رام تشندر وكرشنا كذّابان، لأني قد رأيت في المنام نارا ملتهبة، وكرشنا قائم في وسطها، ورام تشندر على حافتها. فقال له حضرته: إنما تُؤوَّل الرؤيا بلغة الرؤيا، واعلمْ أن النار في الرؤى تعني حُب الله، وإنما تأويل رؤياك هو أن كرشنا في بؤرة حُبّ الله تعالى، وأنه أفضل درجة من رام تشندر، ولذلك رأيت كرشنا في وسط النار ورام تشندر على حافتها.

باختصار، لقد أعلن القرآن أنه قد جاء إلى كل قوم نبيٌّ، فلو جاءنا أحد وادعى أن فلانًا كان نبيًا بُعث إلى قومه، ثم وجدنا وقائع حياته مماثلةً لأحوال أنبياء الله تعالى فنقول لهذا: الحمد لله، لقد سهَّلتَ لنا الأمر. في نقاشاتي مع النصارى واليهود والهندوس أقول لهم دائمًا بأن القرآن قد سهَّل لنا الأمر بإعلانه هذا، أما أنتم فالأمر صعب عليكم جدًا؛ ذلك أن اليهودي حين يقول بأن موسى كان نبيًا، سيقول له الهندوسي مستنكرا: كلا، إنه ليس بنبي؟ والزرادشتي حين يقول إن زرادشت كان نبيًا في إيران، سيصاب اليهودي والهندوسي بالهلع ويقولان: كيف نثبت الآن أن زرادشت كان كذابًا؟ ولو قيل للزرادشتي بأن بوذا كان نبيًا في الهند، لأصابه القلق وقال: يجب أن أثبت بأي طريق أنه لم يكن نبيا. أما نحن المسلمين فقد سهّل لنا القرآن الكريم الأمرَ تماما بإعلانه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، فلو جاءني الآن هندوسي وقال: كان رام تشندر وكرشنا نبيينِ في الهند، فأقول له: ما شاء الله! لقد سهّلت لي الأمرَ وجنّبتَني عناء البحث والتحقيق، وأكّدتَ لي ما قاله القرآن سلفًا، إذ لو سألتَني: أيُّ نبيّ بُعِثَ في الهند؟ لكنتُ في مشكلة. ثم عندما أذهب إلى الصين وأسمع أهلها يقولون بأن كونفوشيوس كان نبيا عندهم، أجد اليهود والنصارى يثيرون ضجة قائلين: لا يمكن أن يكون كونفوشيوس نبيًا، أما أنا فأقول: سبحان الذي سهَّل لي الأمر! إذ لو سألني أهل الصين: أخبِرْني مَن هو النبي الذي بُعث عندنا؟ لواجهت مشكلة، ولكنهم قد وفّروا عليّ عناء البحث إذ أخبروني أن كونفوشيوس قد بُعث فيهم نبيًا، وهذا هو نفس ما علّمني القرآن. وعندما أذهب إلى إيران وأجد أهلها يقولون إن زرادشت قد بُعث نبيا فينا، وأجد اليهود والنصارى والهندوس يتضايقون من هذه الدعوى قائلين: هذا كذب، إذ لم يُبعث نبي إلا في أمتنا، أما أنا فيتهلل وجهي فرحًا وأشكر الله تعالى وأقول للإيرانيين: شكرًا لكم إذ أخبرتموني بأنفسكم باسم النبي المبعوث في أمتكم، وهكذا وفّرتم عليّ عناء البحث، واعلموا أن هذا ما يقوله كتابي القرآن أيضا.

فالحق أن كلّ مدّعي نبوةٍ بُعث في أمته لإصلاحها و لم يتعرض لعذاب الله، سنصدّقه شاكرين الله تعالى، لأن القرآن يخبرنا أن النبي الكاذب يتعرض لعذاب الله.

إذن، فالمبدأ الذي يعلّمنا القرآن الكريم إياه هو أنه قد بُعث في كل أمة نبيٌّ، إلا أننا لا نعلم من الأنبياء التشريعيين الذين شريعتهم لا تزال موجودة إلا اثنين؛ وهما موسى وزرادشت عليهما السلام. لا شك أن كتاب الفيدا الهندوسي يشتمل على شريعة، ولكن "الريشيين" الذين نزل عليهم "الفيدا" مجهولون، فلا نستطيع عقْدَ مقارنة بين النبي ﷺ وهؤلاء المجهولين. كذلك فإن شريعة نوح عليه السلام مفقودة. وهناك شخص آخر، وهو حمورابي، قد قدّم بعض القوانين، ولكن لا نعرف شريعته كاملةً؛ إن كتاباته تشير إلى نزول الوحي عليه وأنه كان موحدا، وأنه قد قدَّم مبادئ أخلاقية رائعة، ولكن لا نعرف تفاصيل شريعته، ولا نعرف ما إذا كان قد قدّم شريعة جديدة أم شريعة نبي سابق. فالحق أنه ليس هناك إلا نبيّان قبل النبي ﷺ شريعتهما معلومة، وهما موسى وزرادشت. والبديهي أن من المحال أن يخفي أحدُ أنبياءِ الله تعاليمَه، إذ كيف يمكن أن يبعث الله شخصًا برسالة إلى الناس فيخفيها عنهم. فالنبي لا يمكن أن يخفي أحكام الشريعة، إلا أنه قد يخفي بعض الوحي لمصلحة مؤقتة، ومثاله ما فعل النبي ﷺ يوم بدر، حيث أخبره الله تعالى بأن القتال سيقع بين المسلمين والجيش القادم من مكة، غير أن الله تعالى أمَره أن لا يكشف هذا الأمر لأصحابه الآن، فأخفاه عنهم ثم أخبرهم به فيما بعد في الوقت الملائم؛ وذلك لأن الله تعالى كان يريد اختبارهم. أما أحكام الشرع فلا يجوز إخفاؤها إطلاقًا.

فالحق أن الأنبياء كلهم يقومون بمهمة تعليم الكتاب. وهنا ينشأ سؤال: إذا كان الأنبياء كلهم قد بُعثوا لتعليم الكتاب كما بُعث النبي ﷺ للغرض نفسه، فما هو وجهُ فضْله عليهم؟

والجواب: المقارنة هنا ليست في تبليغ التعليم للناس، بل في كمال التعليم. الأنبياء سواسية فيما يتعلق بتبليغ التعليم، ولكن فيما يتعلق بكمال التعليم فليس هناك نبي يمكن أن يباري نبيّنا ﷺ، ومن أجل ذلك قال الله تعالى هنا في وصفه: ﴿يُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ﴾. والتعريف بـ "ال" في ﴿الكِتابَ﴾ يفيد الكمال كما هو ثابت من لغة العرب (مغني اللبيب)، والمراد أن هذا النبي يعلّمكم الكتاب الكامل.

لقد بينت آنفًا أن هناك نبيين شريعتهما معروفة، وهما موسى عليه السلام الذي كتابه التوراة، وزرادشت عليه السلام الذي كتابه الزندافستا، وعندما نقارن هذين الكتابين مع القرآن الكريم نجد الفرق هائلا، وإليك بيانه:

١: لم يذكر أيٌّ من الكتب السماوية الهدفَ الأساسي من أحكام الشرع إلا القرآن الكريم. والواضح أن الله تعالى لم ينزل الشرائع للاستمتاع كما يفعل الناس؛ حيث نجد الناس في إسبانيا مثلاً يستمتعون بمصارعة الثيران، وفي الهند يتفرج الملوك على مصارعة الفيلة. فلا يمكن القول بأن الله سبحانه وتعالى يستمتع ويضحك في السماء حين يتوضأ العبد في البرد القارس أو حين يصوم فلا يستطيع من شدة الجوع والإرهاق أن يخطو خطوة ويصفرُّ وجهه. هذا محال على الله تعالى، إنما أنزل الله أحكام الشرع لفائدتنا. فإن الحكومات الدنيوية أيضًا مهما كانت فاسدة، قلّما تسنّ قانونًا يخلو من منفعة، بل يكون في قوانينها شيء من مصلحة الرعايا حتمًا. كذلك فإن أحكام الله تعالى تنطوي على مصلحة ما للإنسان. ولكنك إذا نظرتَ في الكتب السماوية وجدتَ أنها كلها -ما عدا القرآن الكريم- تُقدِّم الشريعة كأنها غرامة تُفرَض على العباد. ففيما يتعلق بالفيدا -كتاب الهندوس- فإنه مختبئ تحت الحُجُب تمامًا، ولا أثر فيه للشريعة. أما التوراة والزندافستا فتكشف لك دراستهما أن فيهما شريعة، إلا أنه يخيل لك أن الله تعالى لم ينزل هذه الأحكام لمصلحة الناس، إنما أنزلها لأنه أراد هكذا، مما لا يحقّق الغرض الحقيقي من الشريعة، ألا وهو الإصلاح. لا شك أن في هذين الكتابين أحكامًا يتضح منها أنها لمنفعة الإنسان، ولكنها بحكم النادر والشاذ. إنما القرآن الكريم؛ وحده الذي يبين أن كل أحكام الشرع إنما هي لمنفعة الإنسان. لا شكّ أن الله تعالى ينزل بعض الأحكام ليختبر بها العباد، ولكن الأصل في أحكامه أن فيها مصلحتهم. يقول الله تعالى عن الأضاحي والقرابين: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾(الحج:٣٨).. أي أنتم الذين تأكلون لحوم الأضاحي والقرابين ولا يصل إلى الله لحومها ولا دماؤها، وإنما يصله تقوى قلوبكم التي هي وراء هذه الأضاحي. إنما

أمركم الله تعالى بتقديم الأضاحي لتتحلوا بالإخلاص وخشية الله والصلاح والسداد، وليس أنه يريد أن يفرض عليكم غرامة.

٢: ما هو نطاق الشرع؟ وما هي الأمور التي يأمرنا فيها وما هي الأمور التي لا يتدخل فيها؟ إن جميع الكتب الأخرى صامتة بهذا الشأن، بينما يلقي القرآن الكريم الضوء الساطع على هذه القضية. ما دام الشرع يتدخل في بعض الأمور ولا يتدخل في بعضها، فالسؤال: لماذا لا يتدخل في بعضها؟ أترَكها نسيانًا أم عمدًا؟ والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي تناول هذا الموضوع، مما يميّز القرآن الكريم على غيره من الصحف.

٣: ضرورة العقل مع وجود الشرع، وضرورة الشرع مع العقل. هذه قضية بالغة الأهمية إذ التسليم بضرورة الشرع مِن دون حلّها محال. لا شك أن الجاهل يسأل المشايخ عن كل شيء ويظن أنه لا حاجة به لإعمال الفكر في أحكام الشرع. وهذه العادة شائعة في أهل ولاية "أُتَر بَرْديش" في الهند بشكل خاص، إذ يذهب أهلها إلى الشيخ يسألونه، فيخترع لهم من عنده ما شاء من أجوبة. كان في "أتربرديش" طبيب من أقاربي، وقد خرج ذات يوم للصيد، فاصطاد غزالا، فجاءه أحد الفلاحين يسعى وقال له: أتعرف ما يُقرأ عليه عند الذبح؟ قال سأقرأ عليه الكلمات التي أقرأها على الدجاج والكبش. قال: لا لا، هناك تكبيرة خاصة علّمَنا شيخنا إياها لذبح الغزال وهي: "لماذا كنت تقفز هنا وهناك وتأكل زروع الناس؟ فالآن لك الذلة ولنا العزة، الله أكبر". فالبسطاء يظنون أن هناك حكمًا إلهيًا معيّنًا لكل شأن من شؤونهم، فيذهبون إلى الشيخ عند كل صغيرة وكبيرة وهم يظنون أنه سيخفي عنهم المسألة الحقيقية، فيتوسلون إليه ألا يُخْفِي عنهم حُكم الله في ذلك الأمر، فإذا كان الشيخ عالمًا حقًا قال لهم: اذهبوا، فحُكْمه لا يختلف عن حكم كذا وكذا، أما الجاهل من المشايخ فيخترع حُكمًا من عنده متظاهرًا لهم بالعلم.

هناك عادة في بعض مناطق الهند بأن أهل كل بيت يحتفظون بسكين خاص بذبح الحيوان، وعندما يذبحون به حيوانا لا يذكرون اسم الله ولا يكبّرونه،

ويقولون إن شيخنا قد قرأه على هذا السكين، وقراءته تُجزِئنا، ولا حاجة بنا إلى قراءة شيء بعده.

هذه العادة كانت ولا تزال عند اليهود أيضا، إذ يحتفظون لذبح حيوانات مختلفة بسكاكين معينة قد قرأ عليها رجال دينهم ما قرأوا، فلا يرون بعدها حاجة لقراءة شيء عند الذبح.

هذا هو حال بسطاء المسلمين، أما المثقفون منهم فيقولون: ما لله ولأعمالنا؟! أنحن أغبياء حتى يتدخل الله في أمورنا؟ إنما أنزل الله هذه الأحكام للجاهلين في الأيام الغابرة، أما نحن فنعلم كل المسائل والعلوم والفنون جيدًا، ونملك العقل والذكاء، فنحن في غنى عن هذه الأحكام.

إذن، فعامة الناس يُقحمون الشرع فيما لم يُرِد الله تعالى، والمثقفون يقحمون العقل فيما لم يرد الله تعالى، فكان حقًا على الله تعالى أن يبين لماذا يحتاج المرء إلى العقل مع الشرع وإلى الشرع مع العقل، ولكننا لا نجد كتابًا سماويًا يلقي الضوء على هذه القضية سوى القرآن الكريم.

والآن أتناول هذه الأمور بالتفصيل. فيما يتعلق بأصول الشرائع فهي خمسة في الإسلام:

أوّلها: الإيمان بالله، ويندرج فيه الإيمان بصفات الله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر والبعث بعد الموت. وقد تناولنا هذه الأمور مفصّلةً فيما مضى.

وثانيها: العبادة، وهي ثلاثة أنواع: (أ) العبادة التي هي عبارة عن حركات الجسد وذِكْر الله، كالصلاة، (ب) العبادة الذِّكرية ومثاله ذِكر الله، (ج) العبادة الفكرية.. أي التدبر في صفات الله تعالى. وقد ذكر القرآن الكريم هذه العبادة بجميع أنواعها.

النوع الأول للعبادة، الصلاة: إن الصلاة في الإسلام تشتمل على حركات جسدية وأذكار وأدعية، مما يجعل الصلاة الإسلامية أفضلَ من صلاة الأديان الأخرى. إن جميع الحركات الجسدية فيها ذات وقار وفيها أهداف ومنافع، وقد رُوعي فيها جميع أساليب التعظيم والاحترام الشائعة عند مختلف الأمم. فالأمة

الفارسية تعتبر الوقوف مع إسبال اليدين منتهى التعظيم، أما الأمة التركية فترى الوقوف بأيد مربوطة على الصدر علامة قمة التعظيم، أما الهندوس وغيرهم من الأمم فيرون الانحناء منتهى الأدب. وأهل الهند والأفارقة يعتبرون السجود منتهى التعظيم، بينما تعتبر الأمم الأوروبية الجلوس على الركب منتهى الاحترام. بعد انقسام الهند لا يوجد في باكستان الآن هندوس وسيخ بكثرة، أما قبل الانقسام فكان هؤلاء يزوروننا بكثرة ويخرّون على أقدامنا تعظيمًا مهما نهيناهم عن ذلك. في بداية خلافتي جاءني أحد السيخ باكيًا إذ كان يحب المسيح الموعود عليه السلام بشدة، وقال لي شاكيًا: لقد ظلمتْني جماعتك ظلما عظيما. فظننت أنه قد تشاجر مع بعض الأحمديين فضرَبه، فقلت له: لا تحزن، فإني سأتحرى الأمر وأعاقب هذا الظالم، ولكن أخبِرْني ماذا حدث. قال: لقد ذهبت اليوم إلى "بهشتي مقبرة"، فلما سجدتُ لقبر حضرة الميرزا أخذني الأحمديون وأخرجوني من المقبرة. فقلت له: لقد أصابوا فيما فعلوا. قال: ولكن ما فعلتُه صحيح في ديانتنا، ولكم دينكم ولي دين، وسوف أفعل كما أريد، ولا يحق لأحد أن يمنعني من ذلك. فشرحت له الأمر بإسهاب حتى زال غضبه.

ورأيت أن الأتراك يقفون رابطي الأيدي عند قراءة أبيات "المثنوي" التي هي من نظم "الرومي" الصوفي الشهير. والمغول أيضًا يقفون رابطي الأيدي تعظيما، أما الإيرانيون فيقفون سابلي الأيدي تعبيرًا عن الأدب والاحترام. فكل أمة قد اتخذت علامة لمنتهى التعظيم، وقد جمع الإسلام في الصلاة كل هذه العلامات، وإن في ذلك منافع كثيرة؛ ذلك أنه مما لا شك فيه أن المؤمن يستمتع بالصلاة كلها عموما، ولكنه عندما يصل فيها إلى علامة التعظيم الخاصة بقومه فتبلغ مُتْعتُه بصلاته الذروةَ. فكل من يعتنق الإسلام من مختلف الشعوب يجد سكينة عظيمة في الصلاة الإسلامية، فالمسيحي يستمتع بجلسة التشهد أكثر، والهندي يجد المتعة في حالة السجود أكثر، والإيراني يجد لذة في حالة الوقوف، واليهودي يستمتع بحالة الركوع. فما أعظمَ الميزة التي يتميز بها الإسلام! وكأنه قد أشار بذلك إلى أن الناس

من كل الأمم والشعوب سيدخلون في الإسلام. ولكننا لا نجد هذا الأمر بهذه الروعة في عبادات الأمم الأخرى.

ثم إن الإسلام قد فرض الوضوء قبل الصلاة، وهو أمرٌ هام جدًّا لتكميل العبادة، إذ الثابت بالخبرة أن الإنسان إذا ركَّز أفكاره في شيء ضاعت طاقته من أطراف مختلفِ أعضائه التي تنتهي عندها أطراف الأعصاب، فتتشتت أفكاره ويفقد التركيز، ولو تمَّ رشُّ هذه الأعضاء بالماء لتركّزت أفكاره ثانية. وقد جُعل الوضوء منعًا لتشتُّت الأفكار.

وتحقيقًا لهذا الغرض لم نؤمر بالوضوء فقط، بل قد جعل الله تعالى السنن والنوافل قبل صلاة الفرض وبعدها، كما حثّ على ذكره تعالى بعد الانتهاء من الصلاة. وهكذا لم يجعل الله سدًّا أمام مختلف الأفكار قبل صلاة الفرض فقط، بل بعدها أيضا.

والحق أن التجهيز لكل عمل يبدأ قبل موعده بوقت، فمثلاً إذا أردنا أن نركب قطارًا سيتحرك في الساعة العاشرة، فنبدأ التفكير بذلك في الساعة الثامنة، وإذا أردنا الإفطار من الصوم سنبدأ التفكير والاستعداد لذلك قبل مغيب الشمس بربع ساعة أو ثلثها. وهذا هو حال أعمالنا الأخرى، أعني أن تأثير العمل السابق على نفسنا يستمر بعض الوقت، كما يبدأ التفكير في العمل القادم قبل موعده بوقت، فلولا أن الله تعالى جعل الوضوءَ قبل صلاة الفرض والنوافلَ بعدها، لضاعت نصفُ صلاة المرء في التفكير في العمل السابق ونصفُها في التفكير في العمل الآتي بعدها، ودفعًا لهذا العيب قد جعل الله تعالى الوضوء والسنن والنوافل قبل صلاة الفرض وبعدها أيضا، وهكذا جعل الصلاة محمية بين سدّين. ولو ضاعت صلاة المرء بعد هذه التدابير أيضا فهذا تقصيره هو، أما الله تعالى فقد أتاح له الفرصة لأدائها في معزل عن هجوم أفكار الدنيا، وحمى هذه العبادة مِن أي هجمة شيطانية ممكنة.

وبالمقابل نجد أن العبادة في الهندوسية والمسيحية ليست إلا غناء وموسيقى، وهي مجرد تلذُّذٍ وليست بعبادة في الحقيقة، أو جعلوا العبادة طقوسًا أخرى لا جدوى منها، إذ يوقدون النار ويضعون عليها الزيت، وإذا اشتعلت رددوا بعض الكلمات.

كيف يتطهر القلب بطقوس كهذه؟ لا شك أن قولنا: "سبحان الله العظيم" يطهّر القلب، ولكن ماذا سينفع المرء ترديد كلمة (صاحا) عند اضطرام النار؟

أما الزرادشتيون فيعبدون متجهين إلى الشمس أو الماء. لا شك أن هناك أدعية في عبادتهم، ولكنها قد اتخذت طابع الوثنية.

أما صلاة اليهود فهي خالية من السجود، ثم إنها ليست مبنية على أي أصل.

باختصار، إن الصلاة الإسلامية

(١): تحوي جميع أركان التعظيم وعلاماته.

(٢): لقد عيّن الإسلام للصلاة قِبلةً لا بد منها للاتحاد، الأمر الذي لا يوجد عند الآخرين. لا شك أن الأمم الأخرى أيضا تتوجه إلى جهة معينة عند الدعاء الجماعي، ولكن لا يكون عندهم إحساس أن إخوانهم الآخرين في العالم كله أيضا مشتركون معهم في هذا العمل. أما المسلمون فالأفارقة منهم يتجهون خلال الصلاة نحو الشرق، والأوروبيون منهم يتجهون نحو الجنوب، والإيرانيون منهم إلى الجنوب الغربي، والهنود منهم إلى الغرب، فحالتهم جميعًا خلال الصلاة تشبه حالة الهندوس حول "هَوَن"• إذ يكونون -أينما وُجدوا في العالم- متجهين خلال عبادتهم إلى قبلة واحدة. أما اليهود والنصارى والهندوس فيتّجهون في عبادتهم حيثما شاءوا، فبعضهم يتجه نحو الشمال، وبعضهم نحو الجنوب، وبعضهم نحو الشرق، وبعضهم إلى الغرب، إذ يكون مقعد هذا موجهًا إلى ناحية، ومقعد ذاك إلى ناحية أخرى. عندما يؤمّ القسيس المسيحيين في عبادتهم يجلس بعضهم على يمينه، وبعضهم على شماله، ويقف بعض نُوّابه وأعوانه وراءه حاملين الماء أو الشمع دون أن يكون عندهم أي إحساس بالاتحاد. أما المسلمون فيكون عندهم إحساس عند الصلاة أنهم متجهون إلى جهة واحدة، سواء كانوا من شمال الكرة الأرضية أو جنوبها أو شرقها أو غربها. وهذا سبب عظيم للاتحاد شريطة أن ينتفع منه المسلمون.

• هَوَنْ وهَوَمْ: عبادة هندوسية يحرقون خلالها السمن على النار ويتحلّقون حولها. (المترجم)

غير أن الإسلام قد بيّن -درءًا للشرك- أنه ليست في القبلة ميزة ذاتية، فقال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(البقرة:١١٦).. أي أن الشرق والغرب سيّان عند الله، فأينما تتوجهون تجدون الله تعالى.

باختصار، ليست هنالك ديانة سوى الإسلام بلّغت العبادةَ الذروةَ والكمال، مما يشكّل دليلاً عظيمًا على فضل الإسلام على غيره من الأديان.

(٣): ثم إن الإسلام قد أرسى مبدأ الجماعة في العبادة، وهذا هو هدف الدين. ذلك أن الحياة الإنسانية ذات جهتين: فردية وجماعية، ولا بد من مراعاتهما في مجال الدين والسياسة والأمة والأخلاق والتمدن وما إلى ذلك، وإلا لفسَد المجتمع. والأمم التي لم تُراعِ في سياستها الحياة الجماعية والمسئوليات الجماعية أصابها الضعف في النهاية، أما الأمم التي اعتبرت الإنسان قطعة من آلة السياسة، فقد سدّت طريق التقدم أمام الناس، كما فعلت الشيوعية. إنما المبدأ الأصيل والناجح في السياسة هو الحفاظ على التوازن السليم بين الفردية والجماعية في وقت واحد. وهذا هو المبدأ الناجح والنافع في الدين أيضا. والإسلام وحده الذي قد عمل بهذا المبدأ، فهو الوحيد بين الأديان الذي قد أعطى الروح الجماعية مقامها اللائق والمحترم لأوّل مرة في تاريخ الأديان. خذوا مثلا الصلاة، فقد بيّنت آنفًا أن الأمم الأخرى أيضا تجتمع للعبادة: المسيحيون في كنائسهم، والهندوس في معابدهم التي يسمونها "مَنْدَر"، والسيخ في معابدهم التي يسمونها "غُرُودَاوارا"، ولكن لا يوجد عند هذه الأمم الطابع الجماعي الموجود في الصلاة الإسلامية. ثم إن صلاة الجماعة ليست فرضًا عندهم.. أعني أن مَن لم يقم بالعبادة الجماعية عندهم لا يُعتبر آثما، أما الإسلام فقد فرض صلاة الجماعة على كل مسلم إلا إذا كان عنده عذر. لا شك أن المسلمين قد غفلوا عن دينهم اليوم، ولا يحضرون المساجد كما ينبغي، ولكن لا يهمّنا هنا عملهم، إنما يهمّنا تعاليم الإسلام. إن ما يعلّمه الإسلام هو أن صلاة الجماعة فرض على الجميع، وكل مسلم يقرّ -مع ضعف التزامه- أنها فرض. إذن، فأحد الفروق البارزة بين عبادة الإسلام وبين عبادات الديانات الأخرى أن الإسلام قد فرض

صلاة الجماعة، بينما لم تفرضها الأديان الأخرى، بل خيّرت أتباعها في حضورها وعدمه.

ثم إن الإسلام فرض علينا صلاة الجماعة مرات عديدة في اليوم، الأمر الذي لا نظير له عند الأديان الأخرى. ففي الإسلام هناك صلاة قبل طلوع الشمس، وبعد زوالها، وقبيل غروبها، وبعد مغيبها، وقبل النوم. لقد فرض الإسلام هذه الصلوات الخمس على كل مسلم، ولم يخيّره في أدائها. متى توجد العبادة بهذه الكثرة وبالجماعة عند الآخرين؟ فمع أن المسلمين قد صاروا غافلين عن دينهم اليوم، إلا أننا لو جمعنا صلوات الذين يحضرون المساجد في سنة واحدة، لفاقت عبادة المسيحيين في عشر سنوات. فمثلا إذا كان ٥% من المسلمين يصلّون، فهذا يعني أن ٢٠ مليون من مجموع ٤٠٠ مليون مسلم يصلّون، وهؤلاء العشرون مليونًا من المصلين يؤدون ١٠٠ مليون صلاة في اليوم، و٧٠٠ مليون صلاة في الأسبوع، وكلها صلوات بالجماعة، أما المسيحيون فلا يصلي منهم إلا ٢% أو ٤ % منهم فقط. لا شك أن نسبة المصلين المسيحيين في الهند أكثر من البلدان الأخرى، لكنهم يصلّون على العموم رياءً، أما في أوروبا فلا يصلي إلا نحو ٢% منهم، فلو زرت الكنائس الضخمة هناك، لم تجد فيها إلا ٥ أو ٦ من المصلين، ومع ذلك لو اعتبرنا أن ٥% من المسيحيين يصلّون فهؤلاء لا يصلّون إلا مرة في الأسبوع، أما المسلمون فكل واحد من الـ٥% منهم يصلّي ٣٥ صلاة في الأسبوع ، ويصلي الـ٥% من المسلمين في الأسبوع ١٧٥ صلاة. فانظرْ البون الشاسع بين صلوات المسلمين والمسيحيين، حيث يصلي ٥% من المسيحيين في الأسبوع صلاة واحدة، بينما ٥% من المسلمين يصلون في الأسبوع ١٣٥ صلاة.. وهذا يعني أنه لو افترضنا أن عدد المسيحيين مثل عدد المسلمين وأن الذين يحضرون للصلاة في كنائسهم يماثلون عدد المسلمين المصلين – مع أن الأمر ليس كذلك– مع ذلك؛ فإن المسلمين يصلّون ١٧٥ ضِعفًا أكثر من المسيحيين.

أما الهندوس فلا توجد عندهم العبادة بهذا القدر أيضا. أما الزرادشتيون؛ فيذهب كاهنهم إلى شاطئ البحر، فيقوم بدعاء قصير هناك.

فثبت أن صلوات الأديان الأخرى لا تساوي شيئًا إزاء الصلاة الإسلامية. لم تبقَ عند النصارى العبادة الأسبوعية أيضا، وإنما يعلن قسيسهم أنه سيكون غناء في الكنيسة في اليوم الفلاني، فيجتمعون للاستمتاع بالغناء، أما المسلمون فيحضر إمامُهم إلى المسجد بهدوء، ويحضر المصلون وتُقام الجماعة. لا شك أن أكثر المسلمين لا يصلّون اليوم، ولكن نسبة المصلين بينهم أكثر بكثير بالمقارنة مع المصلين في الأديان الأخرى. فمبدأ الصلاة في الجماعة الذي أرساه الإسلام من أجل اجتماع الأمة واتحادها لا نظير له في الأديان الأخرى. ثم إن الإسلام قد اشترط لصلاة الفرض أن يؤديها المرء في مسجد حيِّه (الترمذي: أبواب الجمعة)، ولكن هذا الشرط ليس عند الأديان الأخرى، بل يمكن لأحدهم أن يصلّي في أي معبد أو كنيسة، ولكن عدم صلاة المرء في مسجد حيّه قد يؤدي إلى سريان نزعة الاختلاف فيه مع جيرانه أو أهل حيّه أو مع إمام الصلاة، فلا يمكن إصلاحه في وقته. فالإسلام قد حاول بهذا الحكم تكميل المنافع الكامنة في صلاة الجماعة. ورد في الروايات أن أحدًا قال لصحابي: تعال نصلِّ في مسجد الحي الفلاني، فقال الصحابي: لقد سمعت الرسول ﷺ يقول أن على المسلم أن يصلي في مسجد حيِّه، لذا فيجب أن نصلي في مسجد حيِّنا.

فالإسلام يأمر بأداء الصلاة جماعة وفي أقرب مسجد لبيته، إلا أن يكون في مسجد آخر مناسبة خاصة للوعظ والنصح. ولكن هذا الأمر لا يوجد عند المسيحيين ولا الزرادشتيين ولا السيخ ولا غيرهم. إذا صلى الناس في مساجد الأحياء الأخرى فلا يصبح المؤمنون جماعةً، ولا يتحقق الغرض من الصلاة جماعةً؛ ذلك إذا لم يحضر المرء في مسجد حيِّه، علِم الجميع بذلك وعُرف فورا، وإذا قال عند السؤال بأنه يصلي في مسجد حيٍّ آخر، قيل له: لماذا تصلي هناك مع أن المفروض أن تصلي في مسجد حيِّك. ولو قام الناس بتحرّي الأمر لوجدوا أن هناك مشكلة، فقد يكون ساخطًا على إمام المسجد مثلاً، وفي هذه الحالة من واجب الجماعة ونظامها الإصلاحُ بينهما، وهكذا تتّحد كلمة المسلمين ثانيةً.

باختصار، هذه ميزة للإسلام لا نظير لها في أي ديانة أخرى.

(٤): ثم إن الله تعالى قد مهّد بالصلاة الإسلامية للتدبر في صفاته تعالى. يقرأ المسلم القرآنَ في صلواته كلها، ويقوم بالأدعية الكثيرة في الركوع والسجود، ويردّد في سورة الفاتحة قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ويتدبر فيها. عند النصارى دعاء محدد يردّده القس، أما المسلم فواجبه أن يقرأ هذه الأدعية بنفسه، وهكذا فتح له الإسلام طريق التدبر في صفات الله تعالى.

(٥): لقد جُعلت الصلاة الإسلامية وسيلةً للقاء الله تعالى، فعندما يبدأ المسلم صلاته بقوله: الله أكبر، فكأنما يحضر في بلاط الله تعالى، فلا يكلّم أحدًا. أما المسيحيون فإذا دخلتْ عليهم في الكنيسة فتاة جميلة أخذ الجميع يحملقون بها، أما في صلواتنا فلا يجوز النظر هنا وهناك، بل يصبح المصلي مستغرقا في صلاته كل الاستغراق حتى لا يجوز له الرد على سلام الآخر، بل إذا أخطأ المصلي في صلاته فلا يحق لمن لا يصلي معه جماعةً أن ينبّهه إلى خطئه، فمثلا إذا نقص المصلي سجدة أو زادها وكان هناك شخص يراه ويعرف أنه قد أخطأ فلا يحق له أن ينبهه إلى خطئه إلا إذا كان المخطئ إماما وكان هذا يصلّي خلفه. إذن، فالمسلم يكون ماثلا أمام الله تعالى في بلاطه وقت الصلاة، ولا يحق لأحد أن يتدخل في صلاته. كما لا يجوز للمسلم أن ينظر هنا وهناك خلال الصلاة، فقد قال النبي ﷺ: مَن نظر في الصلاة هنا وهناك حوّل الله تعالى رأسه رأسَ حمار*. وهذه إشارة إلى حمقه. وأيّ شك في أن مثل هذا أكبر أحمق! يا ترى، لماذا ينظر هذا يمنة ويسرة في صلاته؟ إنما سببه أنه يرى شيئا يثير عجبه. وهل هناك ما هو أشدُّ إعجابا من الله تعالى؟ فإذا

---

* ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: "أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ، أَوْ لا يَخْشَى أَحَدُكُمْ، إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ (صحيح البخاري:كتاب الأذان). وورد أيضا عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا يَزَالُ اللَّهُ ﷻ مُقْبِلاً عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ فِي صَلاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا الْتَفَتَ انْصَرَفَ عَنْهُ." (أبو داود: كتاب الصلاة). (المترجم)

كان يصرف بصره عن الله تعالى وينظر إلى أشياء أخرى، فلا شك أنه حمار. إن أمامه وجه جميل، ولكنه ينظر إلى القط والفأر؛ فأي شك في كونه حمارًا؟

فالحق أن الصلاة الإسلامية وسيلة عظيمة للقاء الله تعالى، ولكن صلوات الديانات الأخرى ليست وسيلة للقاء الله تعالى. فعندما يقود القسيس الناسَ في عبادتهم في الكنيسة يحمل أحد زملائه مصباحا، والآخر ماء، والثالث يقوم بعمل آخر، ومع ذلك يقال أنهم يصلّون. أما الصلاة الإسلامية فلا يجوز لأحد أن يتكلم فيها أو ينظر خلالها هنا وهناك، الأمر الذي لا أثر له في عبادات الأديان الأخرى. كان الصحابة في أول أمرهم يتكلمون فيما بينهم خلال الصلاة، إذ لم يكونوا مدركين بعدُ حقيقة الصلاة تمامًا، فإذا حضر أحدهم متأخرا، سأل المصلين في أية ركعة أنتم الآن؟ فكان يجيبه على سؤاله، ولكن النبي ﷺ نهاهم عن ذلك (البخاري، كتاب الجمعة)، فلا يجوز في الإسلام أن يردّ المصلي على أحد سلامَه ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه أو مديره أو أحدًا من معارفه، ذلك لأن المصلي لا يكون في هذا العالم خلال الصلاة. لو كان هنا لرد عليهم سلامهم، إنما يكون قد ذهب إلى الله تعالى، فكيف يرد عليهم السلام؟ ومن أجل ذلك يبدأ المصلي صلاته بقوله: الله أكبر، وكأنما يعلن: أيها الإخوة والأقارب، أنتم أعزّةٌ عليَّ، ولكن الله أعزُّ عليّ مِن كل عزيز؛ فإني ذاهب إليه قاطعا أي صلة معكم. وعندما ينهي صلاته يقول: السلام عليكم، معلنًا أنه قد رجع الآن مِن عند الله إليهم، فيكون مَثله عندئذ كمثل مَن يأتي من الخارج ويسلّم على أهل بيته. يا لها من صلاة خالصة ومكتملة!

(٦): لقد فتح الإسلام من خلال الصلاة طريق الدعاء. والدعاء نوعان: محدَّد الكلمات، وغير محددها. والأدعية المحددة هي أفضل الأدعية وأروعُها، أما غير المحددة منها فهي تلك التي نقوم بها بلساننا حسب حاجاتنا. وحيث هناك احتمال أن نترك بعض الأدعية الهامة الرائعة أو لا نتذكرها، فلذلك حددها الله تعالى بواسطة رسوله ﷺ، فدعاء الفاتحة مثلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ هو مِن الأدعية

التي ما كانت لتخطر ببالنا، وكذلك ما كان دعاء: "سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد" ليخطر لنا على بال، ولذلك جعلها الله تعالى ورسوله من الأدعية المحددة التي نقرأها في الصلاة، ومن ناحية أخرى سمح الله تعالى لنا بترديد بعض الأدعية بلغتنا حسب حاجاتنا عند خسارة مال أو فساد وظيفة أو كساد تجارة أو أية حاجة أخرى. ولا توجد مثل هذه الأدعية الفردية أو الجماعية في عبادات الأمم الأخرى.

(٧): ومن خصائص الصلاة الإسلامية القراءةُ بالجهر والسرّ. أما عند المسيحيين فتجد أن قسيسهم يقوم للوعظ ويقرأ آية من الكتاب المقدس ويشرحه في خطابه، وهذه تُعتبر عبادتهم. ثم يدعو مثلاً: لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ. (مَتَّى ٦: ١٠-١١)، وما إلى ذلك من أدعية معروفة عندهم. أما الإسلام فقد قسم الصلاة قسمين، أحدهما بالجهر والآخر بالسر. ثم هناك أجزاء من الصلاة يجهر الإمام فيها بالقراءة ونردّد وراءه سرًّا عندما يتوقف قليلا، مثل سورة الفاتحة، وأجزاء أخرى يجهر بها الإمام بالقراءة ولا نردّد وراءه، وإنما ننصت إليه في صمت، مثل الآيات القرآنية التي يقرأها بعد الفاتحة.

ثم إن النبي ﷺ قد أمرنا أن يكون أتقى القوم إمامًا في الصلاة، ذلك أن أتقى الناس إذا صلى بهم فلا بد أن يمتزج في صوته حرقة ولوعة تؤثّر على الآخرين وتحدِث فيهم تغيرا طيبا. كان الخليفة الأول رضي الله عنه يحكي أنه كان في مدينة "راولبندي" مؤذن عذب الصوت، وكان أحد كبار السيخ جارًا للمسجد، فقالت له ابنته يومًا: يا أبت، سوف أصبح مسلمة. فقال: ماذا رأيت في الإسلام؟ قالت: إنه دين حق، فإني أشعر في صوت مؤذنهم حرقة تدل على حب الله تعالى. فدعا السيخيُّ المؤذنَ وأعطاه عملاً مقابل أجرة مغرية جدًّا ورحّله من المسجد، فجاء مؤذن آخر قبيح الصوت، وبعد أيام قال السيخي لبنته: ما رأيك الآن في الإسلام؟ قالت: لا أرغب فيه الآن، لأني علمتُ أن بين المسلمين أخيارا وأشرارا أيضا، كما هو الحال عندنا نحن السيخ.

إذن، عندما نسمع من الإمام الذي هو أتقانا صوتًا ممزوجًا بلوعة قلبية فلا بد أن تلتاع قلوبنا، ونزداد خشوعا ودعاء في الصلاة.

(٨): ثم إن الإسلام لم يجعل إمامة الصلاة خاصة بأسرة أو قبيلة معينة، بينما لا يمكن أن يؤم النصارى في عبادتهم إلا قسيس خاص. وأما الهندوس فلا يمكن أن يؤمهم في عبادتهم إلا عالم دين من عرق خاص، وأما السيخ فلا يمكن أن يؤمهم في عبادتهم إلا عالم خاص يسمونه "غارنثي". لقد قضى الإسلام على هذه العادات، وأعلن أن كل إنسان تقيّ -بغض النظر عن عرقه أو عائلته وطبقته- يمكن أن يكون إمامًا في الصلاة. عندما يزور الأوروبيون بلادنا تأخذهم الحيرة عند رؤية هذه الخصوصية في صلاتنا، إذ لا يمكن أن يؤمّهم في عبادتهم إلا قسيس حاصل على شهادة دينية معينة، ولكن الله تعالى قد أرسى المساواة في بلاطه بإعطاء حق الإمامة لكل مسلم بشرط التقوى.

ثم لا يمنح الإسلام المصلين أي امتياز من عرق أو غيره خلال الصلاة في المسجد. أما لو ذهبت إلى كنائس الإنجليز وجدت فيها مقاعد خاصة بعائلات معينة، ومكتوب عليها هذا المقعد لِلَّوْرد فلان وذلك لفلان لأنه يدفع للكنيسة ٥٠ باوند سنويا مثلاً، وهذا يعني أنهم يبيعون مكان عبادة الله للناس. وهذا هو حال الأمم الأخرى أيضا، حيث يخصصون أماكن للكبار، فالبانديت الهندوسي أو الغارنثي السيخي إذا ما رأى أحد الكبار قد حضر للعبادة، فلا يلبث أن يرحب معلنًا: ها قد جاء فلان، ثم يقول له: تعال اجلس هنا، وذلك خلال إمامته للناس بالعبادة أو قراءته كتابهم عليهم. وهذا محال عند المسلمين، ولو فعل هذا أحدُ أئمتهم لخاصمه الجميع قائلين: اخرجْ فقد بطلت صلاتك.

عندما أصبح المسلمون ذوي ثروات بعد الرسول ﷺ وأصيبوا بالكبر والغرور، فإن ملوكهم إذا جاءوا للحج ذهب بعض خدمهم إلى المسجد الحرام مبكرا ووضع هناك سجادة للملك، وذات مرة جاء مسلم فقير ووقف على سجادة مِلِكٍ ليصلي، فقال له جندي: لماذا تقف هنا، فهذا مُصلّى الملك؟ فأجابه: هذا ليس بلاط الملك، هذا بلاط الله، والجميع سواسية هنا. فحاول الجندي الضغط عليه، فهبَّ جميع

المصلين وقالوا: هذا بلاط الله مِلكِ الملوك، والمِلكُ هنا مثل الخادم، والضعيف هنا مثل القوي، وثارت ضجة في المسجد، فلم يجد المِلك بدًا إلا أن يخضع لرأيهم. فبنى الملوك بجوار المسجد مكانًا خاصًا يصلون فيه، ولا يدخلون المسجد، لأنهم إذا دخلوه فلا بد أن يقفوا مع الآخرين. لقد جاءت حكومات إسلامية كثيرة، ولكن لم تجرؤ أي منها على تحديد مكان خاص بالملك داخل المسجد، فلا يستطيع أحد أن يمنع أحدا من أصحاب المهن البسيطة من غسّال وحلاّق وفُخَّاري وغيره من الوقوف بجانب المِلك في الصلاة، بل لا يقدر المِلكُ نفسه على منعه من ذلك.

إذن، فإن الإسلام إذ أعلن أن الجميع سواسية في حق إمامة الصلاة، فقد أعلن أيضًا أن الجميع سواسية في أداء الصلاة في أي مكان في المسجد، وهكذا أرسى المساواة بين الناس.

(٩): ثم إن الإسلام قد أزال من العبادة قيدًا آخر، فالمسيحي إذا أراد الصلاة فلا بد أن يصليها في كنيسته، والهندوسي لا بد له أن يذهب إلى معبده، والسيخي لا بد أن يذهب إلى معبده، أما الرسول ﷺ فأعلن: جُعلتْ لي الأرض مسجدا (البخاري، كتاب الصلاة). تقام العبادة عند المسيحيين في الكنائس فقط وعند الهندوس في معابدهم فقط، أما المسلمون فهم يسجدون في كل شبر من الأرض. عندما نذهب إلى الجبال نختار للصلاة أماكن مختلفة متعمدين، لكي لا يبقى هناك مكان لم يُعبد الله فيه. انظرْ كَمْ وسّع الإسلام موضوع الصلاة، فإذا كان الله تعالى قد أرسى المساواة بين الناس بمنح حق الإمامة لكل مسلم وجعْلِهم سواسية في مساجدهم، فقد جعل كل شبر من الأرض مساويًا لشبر آخر فيها حين قال رسوله ﷺ: جُعلت لي الأرض مسجدا.

(١٠): وإذا كان الله تعالى قد جعل الأرض كلها مسجدا للمسلمين بقول الرسول ﷺ هذا، فإنه تعالى قد جعل بيت كل مسلم مسجدا، ذلك أن الرسول ﷺ قد استحب أداء النوافل في البيوت قائلا: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر" (مسلم، كتاب صلاة المسافرين).. أي لا تظنوا أن الصلاة لا تجوز في البيوت كما في المقابر، بل

عليكم أن تصلوا بعض صلاتكم في المساجد وبعضها في البيوت. وهكذا قد مهّد الله تعالى لعبادته في كل شبر من الأرض.

النوع الثاني للعبادة، العبادة الذِكْرية:

بالإضافة إلى العبادةِ التي تتم بصورة معينة من حركات ومواقيت؛ أعني الصلاة الإسلامية، هناك عبادة ليس لها شكل معين، بل هي عبادةُ فكر وذكر. وقد جعلها الله بشكل غير معين، لأن الصلاة لا يمكن أن تُؤدَّى في كل وقت، أما صلاة الذِّكر فيمكن أن يؤديها الإنسان في كل حين وحال.. في النوم واليقظة وفي الوقوف والمشي. لقد سئل أحد أولياء الله تعالى: كيف نقوم بأعمالنا إذا كنا سنتعبَّد في كل حين؟ فأجاب:

دَسْت در كار ودل با يار

أي قُوموا بأعمالكم بأيديكم واذكروا الله في الوقت نفسه، ومارِسوا مهنكم وتجاراتكم وغيرها من مشاغل الدنيا واذكروا الله أيضا في الوقت نفسه.

كان حضرة "مظهر جان جانان" من كبار الأولياء وفحول الشعراء، وكان له مريد مقرب اسمه "ميان غلام علي"، فبينما كان حضرته جالسا في مجلسه إذ جاءه شخص بحلوى مصنوعة من القشطة تسمى "لَڈو"، وكان حضرته يحبّ أكلها، فأخذ حبّتين من الحلوى وأعطاهما تلميذه المقرب قائلا: لعلك تحبّها، إنها حلوى لذيذة. وبعد برهة قال له: يا ميان غلام علي، ماذا فعلتَ بالحلوى؟ قال: قد أكلتُها. فقال: أكلتَها بهذه السرعة؟ قال: كانت حبتين فقط فوضعتهما في فمي وأكلتهما. قال حضرته في حيرة: أكلتَ الاثنتين! يبدو أنك لا تعرف كيف تؤكل "لڈو". قال: فعلِّمْني يا سيدي كيف تؤكل؟ قال: إذا أتتْنا ثانيةً سأعلّمك كيف تأكلها. وبعد بضعة أيام جاءه بها أحدهم، فقال المريد: سيدي، لقد وعدتني أن تعلّمني كيف تؤكل هذه الحلوى، فعلِّمْني الآن. كان حضرته شديد الاهتمام

بالنظافة مثل الشاه ولي الله الدهلوي -رحمهما الله- والمشهور عن الشاه الدهلوي أنه كان يلبس كل يوم لباسا نظيفا، إذ كان مَلِكُ "دهلي" يبعث له كل يوم ثوبا جديدا إذ كان من زمرة مريديه، وكان حضرة "مظهر جان جانان" أنيق الطبع، فكان لا يطيق أن يرى أي شيء غير مرتب، وكان يقول: كيف يمكن أن يكون قلبه طاهرا مَن لا يستطيع أن يضع الأشياء مرتبة؟ وذات مرة جاء الملك للقائه، وأحس وزيره بالعطش، فحمل كأس ماء وشرب، ثم وضع الكأس بطريق غير مرتب، فرآه حضرة مظهر جان جانان وغضب وقال للملك: كيف اتخذت وزيرا من لا يعرف أن يضع الكوب في مكانه بشكل صحيح؟

باختصار، كان حضرته شديد الاهتمام بالنظافة، فأخرج منديله من جيبه وفرَشه على السجاد ثم وضع عليه حبتين من الحلوى، وأخذ منها قطعة صغيرة جدًا ووضعها في فمه وقال: سبحان الله، سبحان الله. ثم قال لتلميذه المقرب: هل فكّرت كيف صُنعت هذه الحلوى؟ إن سيدك مظهر جان جانان لا يساوي شيئًا، إذ خلقه الله تعالى من ماءٍ مَهينٍ تحوَّلَ إلى مضغة بمرور الأيام، ثم كُسي لحماً، وإنه سيموت في نهاية المطاف، ولكن انظرْ إلى ألطاف ربه المستوي على العرش، والخالقِ لكل شيء من أرض وسماء وما بينهما، والمالكِ للأشياء كلها، والعالم بكل شيء، والقادر على ما يشاء، فإنه فكّر أنه سيخلق عبده "مظهر جان جانان" في يوم من الأيام، وأن عبده هذا سيحبّ هذه الحلوى المصنوعة من القشطة، فخلَق الأسباب لصنعها. هل فكّرتَ كيف يصنع السكر؟ إن الله تعالى هو الذي ألقى فكرة صنع السكر في قلب الفلاح، فزرع قصب السكر، فلما استوى الزرع سخّر الله تعالى مئات الناس لصنع السكر لمجرد أن يأكل عبده "مظهر" هذه الحلوى. ثم ظل حضرته يبيّن تفاصيل صنع هذه الحلوى قائلا لتلميذه: يا ميان غلام علي، هل فكّرت كيف صُنعت القشطة؟ لقد أكلت البقرةُ أنواع الكلأ والحشيش الذي تحول إلى اللبن، فصُنعت منه القشطة، ثم صنع الحلواني هذه الحلوى من السكر والقشطة لكي يأكلها "مظهر جان جانان". وفيما كان حضرتُه يبين هذه التفاصيل بكل دقة

ويذكر مِنن الله عليه، أذَّن المؤذِّن، فخرج حضرته للصلاة وبقيت الحلوى في مكانها (حكايات أولياء ص٣٠-٣٣).

باختصار، لو صلينا كل وقت فلا نستطيع القيام بأعمال الدنيا من وعظ ونصح وغير ذلك من مشاغل الحياة. أما الذكر فيمكن أن نقوم به كل حين. فالخبّاز مثلاً يمكن أن يصنع الخبز ويردّد بلسانه: سبحان الله، سبحان الله. فمتى يمنعه هذا من العمل؟ عليه أن لا يبرح يسبح الله تعالى وهو يأخذ قطعة من العجين ويدوّرها ويرقِّقها ثم يمدّدها على القماش ثم يضعها في التنور، ثم يحرك الرغيف فيه، ثم يخرجه منه، بدلا من أن يشتغل بالحديث مع أصدقائه، وهكذا سيصنع الخبز ويقوم بالذكر أيضا. ويمكن للمرأة أن تطحن القمح مثلاً وهي تردّد بلسانها: الله أكبر، سبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وما إلى ذلك من أذكار، فهذا لن يفسد طحينها ولن يقلله. وبوسع الطبيب أن يقوم بالعملية الجراحية بيده، ويسبح الله بلسانه ويفكّر في صنع الله الذي خلق هذا النظام الرائع في جسم الإنسان. فصاحب كل مهنة يمكن أن يمارس مهنته وهو يذكر الله ويسبحه. إن الصلوات لا يمكن أن نؤديها في كل وقت، أما الذكر فيمكن أن نقوم به في كل حال، فيمكن أن نسبّح الله تعالى قائمين أو سابحين أو رامين السهام أو سائقين السيارات. لكن مثل هذا الذكر لا يوجد في أي ديانة سوى الإسلام. قُلْ للهندوسي أو الزرادشتي أن يُخرج مثل هذا الذكر من كتابه! كلا، لا يوجد أثر لمثل هذا الذكر عند أي ديانة أخرى. إذن، فإن الله تعالى قد مهّد الطريق لعبادته بحيث لا مناص لكل إنسان صادق من ذكر الله تعالى.

١: وأكبرُ الذكر هو "بسم الله". لقد أمر الرسول ﷺ أن نبدأ كل عمل باسم الله تعالى، وإلا فلن يبارك فيه. فعليك أن تقول "بسم الله" عند لبس الثوب أو الحذاء أو شرب الماء أو غسل الإناء وذبح الحيوان أو طبخ اللحم وما إلى ذلك من أعمال الحياة وأشغالها؛ ذلك أن البسملة إشارةٌ إلى أن كل ما في الدنيا من أشياء إنما هي مِلْكٌ لله تعالى وأنك تستعملها بإذنه. فإذا قلت "بسم الله" عند ذبح حيوان

فكأنك تقول: إني لم أسرق هذا الحيوان، بل اللهُ مالِكُه وهو الذي أذن لي بأكل لحمه، ولذلك أذبحه. وهذا هو حال كل ما عندك من النعم مِن ملح وفلفل وفحم وإناء وغيرها، فكلها مِلْكٌ لله تعالى وقد أعطاك إياها لتنتفع منها مؤقتًا.

يروى أن حضرة عبد القادر الجيلاني -رحمة الله عليه- كان شهيرًا بتناول أطيب طعام ولبس أفخر لباس، وكان الناس يعترضون عليه بسبب ذلك، فكان يقول: ماذا أفعل؟ فإنني لا آكل طعامًا إلا بعد أن يقول الله تعالى لي: يا عبد القادر، أستحلفك بجلالي أن تأكل هذا! ولا ألبس لباسًا إلا بعد أن يقول الله لي: يا عبد القادر، أستحلفك أن تلبس هذا. فكان حضرته لا يقوم بأي عمل إلا بأمر الله تعالى. والحق أن كل مسلم إذا بدأ عمله باسم الله تعالى فإنما يفعل ذلك بأمره تعالى.. مما يعني أن كل مسلم كهذا، لا يأكل إلا بأمر الله ولا يلبس إلا بأمر الله (خزينة الأصفياء ج١ ص ١٦٠).

٢: والذكر الثاني هو "الحمد لله" الذي يقال عند انتهاء كل عمل. يقول الله عن المؤمنين: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس:١١).. أي أن آخر قولهم أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٣: والذكر الثالث هو "سبحان الله" الذي يقال عند الإعجاب بشيء. والتدبر يكشف لنا أن هذا الذكر أيضا ينطوي على حِكم عظيمة.

٤: ثم هناك الذكر الذي أمرنا الإسلام بترديده عند حلول المصائب، وهو: "إنا لله وإنا إليه راجعون". فكل ما عندك من أقارب وأشياء إنما هو منّة ربانية، فإذا تُوفّي لك قريب، قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، أي لا داعي للهم والحزن فكلنا من الله تعالى وكلنا إليه نرجع. أو إذا انكسر إناء ما من كوب وغيره، قلتَ: إنا لله وإنا إليه راجعون.. أي أن الله تعالى هو الذي أعطاني إياه وسوف نرجع إليه وسوف يعطينا المزيد. فترديدك هذه الكلمة عند كل خسارة تطهِّر نفسك من الصدأ الروحاني.

٥: وأما إذا رأى أمرًا مكروها وشاهد مشهدا فظيعًا فعلَّمه الإسلام أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

٦: وإذا فكّر الإنسان في ارتكاب إثم فعليه أن يقول: أستغفر الله.. أي أريد ملاذ الله تعالى من هجمات الشيطان.

٧: وإذا أردنا القيام بأي عمل هام يمكن أن يعيق الشيطان طريقنا إليه فعلّمنا الله ذِكْرًا هو: أعوذ بالله. فتلاوة القرآن مثلاً عمل هام يمكن أن يضع الشيطان فيه العراقيل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(النحل:٩٩).

٨: وهناك ذكر يقوم به المرء قبل النوم، حيث أمرنا الرسول ﷺ أن نقرأ آية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتين، ثم ننفث في اليدين ونمسح الجسد (البخاري: كتاب الدعوات، وكتاب بدء الخلق).

٩: وإذا استيقظنا من النوم فالذكر الذي علّمنا الله هو: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ". (البخاري: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام)

١٠: ثم هناك ذكرٌ عند المرض وذكرٌ عند الشفاء (البخاري: كتاب المرضى، باب دعاء العائد للمريض).

١١: إن التغوّط فعلٌ منفِّر في الظاهر، ولكن الرسول ﷺ علّمنا ذكرًا لهذه الحالة أيضا، وهو: اللهم إني أعوذ بك من الخُبُث والخبائث. (البخاري: كتاب الوضوء)

١٢: ثم هناك ذِكرٌ عند الغسل والاستحمام (الترمذي، أبواب الطهارة، باب فيما يقال بعد الوضوء).

١٣: أما العلاقات الخاصة بين الزوجين فلها أيضا ذكرٌ علّمَنا إيّاه سيدُنا صاحبُ الكوثر، فأمر الزوجين أن يدعوا الله تعالى قبل لقائهما: اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّب الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. (البخاري: كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال)

فليس من مناسبة من مناسبات الحياة -حتى ولو كانت تتعلق بالتعبير عن المشاعر والأحاسيس- إلا وقد علّمنا الإسلام بصددها دعاءً وذِكرا.

النوع الثالث للعبادة، العبادة الفكرية:

إضافة إلى هذا، فإن الإسلام قد ذكر طرقًا أخرى للعبادة وهي عشر:

١: التفكُّر.. أي إمعان الفكر في المعضلات العقلية والفلسفية. وهذا أيضا يساعد في الوصول إلى الله تعالى.

٢: الشكر.. قال الله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٨).. فعاطفة الشكر تساعد الإنسان على التفكر، وتفتح أمامه سبل قرب الله تعالى.

٣: التذكّر: يختلف التذكر عن التفكر، فالتفكر هو إمعان النظر في معضلة عقلية منطقية، أما التذكّر فهو استنتاج شيء بإمعان النظر في حادث سابق، وهذا يسمى الاعتبار أيضا. وهي وسيلة عظيمة لتطهير القلب.

٤: الشعور: والمراد منه إمعان النظر فيما أُودعت الفطرةُ الإنسانية من مشاعر وعواطف وإثارتها. فهناك أحاسيس وعواطف كثيرة في فطرة الإنسان، وإثارتها تساعد كثيرا على التقدّم الروحاني.

٥: العلم: ومعناه معرفة ما حدث بالآخرين. فالتذكر يعني إمعان النظر فيما حدث بك في الماضي، أما العلم فيعني التدبر فيما حدث بالآخرين. فمثلاً إذا علم المرء أن فلانًا وقع في المصاعب بسبب اقترافه أعمالاً معينة، فهذا ينفعه كثيرا، إذ يمنعه من ارتكابها.

٦: الفقه: إن عادة التفقه في الأمور أيضا يحفّز الإنسان على الخير. قال الله تعالى ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾(التوبة:١٢٢). والفقه يعني تفكيرنا في التأثيرات الباطنية لكل مسألة علمية ظاهرة. فالفكر ذو علاقة بقضية فلسفية، والتفقه ذو علاقة بمسألة علمية ظاهرة.

٧: العقل: لو أعمل الإنسان عقله لتولدت فيه عاطفة تمييز الخير من الشر ومَنَعته من السيئات. فالعقل في دماغ الإنسان بمثابة الكوابح في السيارة.

٨: الإبصار: قال الله تعالى ﴿أَفَلا تُبْصِرونَ﴾.. والإبصار يعني الرؤية بالعيون الروحانية، وهذا أيضا يؤدي إلى أمور كثيرة عظيمة تساعد على إصلاح الإنسان.

٩ و١٠: الرؤية والنظر: وهما متقاربان معنىً في الظاهر ولكن بينهما فرق، فالرؤية تكون مقرونة بشعور القلب، أما النظر فمقرون بقوة الفكر.

إذن، فهذه الأمور العشرة -التفكر والشكر والتذكر والشعور والعلم والفقه والعقل والإبصار والرؤية والنظر- هي أجزاء من العبادة الإسلامية. وقد ذكرها الله تعالى في مواقع مختلفة، وليس هناك دين سوى الإسلام ذكَر أي جزء من أجزاء العبادة هذه.

وثالثها: الزكاة

لقد تناول القرآن الكريم مسألة الزكاة بتفصيل لا نظير له في أي كتاب سماوي آخر. لا شك أنه قد ورد في العهد القديم أن على المرء أن يُخرج عُشْر ماله زكاةً (التثنية ١٤: ٢٢-٢٩)، كما أن في الهندوسية أحكاما بإخراج الصدقات (ستيارتهـ بركاش، السؤال رقم ٨٣، ص ٤٥٨)، ولكنها تفتقر إلى التفاصيل التي بيّنها الإسلام، حيث ذكر للزكاة مبادئ عديدة بيانها كالآتي:

المبدأ الأول: فأول مبدأ قدّمه الإسلام في الزكاة أن كل شيءٍ مِلْكٌ لله تعالى، فقد قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(الشورى: ٥٠). أي أن الله تعالى هو المالك الحقيقي لكل ما في السماوات والأرض، وليس الإنسان.

المبدأ الثاني: أن الله تعالى قد خلَق كل هذه الأشياء من أجل فائدة عباده أجمعين.

المبدأ الثالث: أن كل العباد لهم الحق في كل هذه الأشياء. فكما أن لأهل القرية كلهم حقًّا في الأراضي الخالية هناك، كذلك لكل الناس الحق في جميع الأشياء، ولكن أنصبة الناس في الأراضي الخالية في القرى تكون متفاوته، أما فيما يتعلق في هذه الأشياء التي خلقها الله فإن نصيب الجميع متساو فيها.

هناك سؤال ينشأ عن هذه المبادئ الثلاثة وهو: ما دام لكل البشر حقّ في هذه الأشياء والأملاك، فكيف يحصلون على حقوقهم؟ فمثلاً هناك جبل في أمريكا،

وهذا المبدأ يجعل لنا -نحن أهل القارة الهندية- حقًا فيه، فكيف نحصل على حقنا هذا؟ وماذا نفعل، فالجبل تحت قبضة الأمريكان؟ ولحل هذه المشكلة قد قدّم القرآن مبدأ آخر هو التالي:

المبدأ الرابع: هو أن للقابض على شيء أو العامل عليه حقًا زائدًا فيه، فهذا الجبل يمكن أن يبقى تحت تصرف الأمريكان بشروط، وهي:

١: أن يُقِرّوا بحقوق الآخرين في الجبل الذي تحت قبضتهم.

٢: وإذا زاد إنتاج الجبل أكثر من الحد الأدنى لحقِّهم، فعليهم أن يؤدوا ضريبة رأس المال لأصحاب الحق الآخرين. وطريقته أن يدفعوا لهم واحدًا من أربعين من دخلهم، ويجب ألا يفعلوا ذلك مرة فقط، بل مرة في السنة ولأربعين سنة، أما بعد الأربعين سنة فيصبح هذا الشيء مِلْكًا للقابضين عليه، وهكذا يدر عليهم دخلا زائدا مستمرًا إلى الأبد. وهذا ما يسمى الزكاة.

المبدأ الخامس: أن لا يكنز أحد المال في صورة نقود، بل يجب أن يجعل ماله يدور بين الناس لكي ينتفع به الآخرون.

المبدأ السادس: أن مساعدة الفقراء مسؤولية الأثرياء رغم أداء زكاة أموالهم. فيأمر الإسلام الأثرياء أنه إذا بقي فقير رغم تزكية أموالهم فالإنفاق عليه مسؤوليتهم، والله سيسألهم عنه يوم القيامة. فقد ورد في الحديث أن الله تعالى يقول لعباد له يوم القيامة: لقد رضيت عنكم، لأني كنت جائعا فأطعمتموني، وظامئًا فسقيتموني، وعريانًا فكسوتموني، ومريضًا فعُدْتموني. فيقولون مستغربين: كيف تجوع ربَّنا وتظمأ وتعرى وتمرض؟ فيقول تعالى: يا عبادي، لقد جاءكم عبدي فلان جائعا فأطعمتموه، فإطعامكم إياه هو إطعام لي، وقد جاءكم عبدي فلان عاريا فكسوتموه، فإذا كسوتموه فقد كسوتموني، وقد جاءكم عبدي فلان ظامئا فسقيتموه، وإذا سقيتموه فقد سقيتموني، وقد جاءكم عبدي فلان مريضا فقمتم بعيادته، فعيادتكم إياه عيادة لي. ثم يقول الله لأناس آخرين: كنت جائعا فلم تطعموني، وظامئًا فلم تسقوني، وعريانًا فلم تكسوني، ومريضا فلم تعودوني، فيقولون: رب، متى كان ذلك؟ سبحانك اللهم، فأنت أعظمُ مِن أن تجوع وتظمأ

وتعرى وتمرض! فيرد الله عليهم: لقد جاءكم عبادي الفقراء جياعا وعطاشى وعراة ومرضى، فلم ترعوهم ولم تساعدوهم، فكأنكم لم ترعوني ولم تساعدوني، فاذهبوا وادخلوا النار. (مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض)

فأداء الزكاة لا يكفي، بل إذا بقي فقير بعد أدائها فالإسلام يوجب على كل مسلم مساعدته.

المبدأ السابع: أن الله تعالى جعَل مساعدة الفقراء كفّارةً لشتى ذنوبنا، فحينًا فرض علينا تحرير العبيد، وحينًا أمرنا بإطعام الفقراء وكسوتهم كفّارةً عن ذنوبنا.

المبدأ الثامن: أن الإسلام قد جعَل عند كل عبادة جديدة حقًا للفقراء، فقال مثلاً: إذا وُفّقتم للصيام فأطعموا الفقراء، وإذا جاء العيد فأخرجوا الصدقات للمساكين (البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل العيد)، وإذا أردتم الحج فأنفقوا على ذوي الحاجة.

المبدأ التاسع: لم يُهمِل الإسلام حقوق الفقراء عند الانتصارات والفتوحات أيضًا، بل أمَر بإعطاء الفقراء نصيبهم من أموال الغنائم.

المبدأ العاشر: عند ولادة طفل أمَر الإسلام بالعقيقة والوليمة لإطعام الفقراء (سنن ابن ماجه: كتاب الذبائح، باب العقيقة).

المبدأ الحادي عشر: أمَر الإسلام بإقامة الوليمة عند الزواج لإطعام الفقراء (البخاري: كتاب النكاح، باب الوليمة).

المبدأ الثاني عشر: أمَرنا الإسلام بإعانة الفقراء من أموال المتوفَّى، إضافةً إلى تقسيم تركته على ورثته.

المبدأ الثالث عشر: جعل الإسلام حقًّا للفقراء عند كل حصاد أو ثمر جديد، قال الله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(الأَنعام:١٤٢).. أي إذا أتيتم البيت بأي محصول أو ثمر مِن قمح أو بقل أو قطن أو مانجو، فآتوا الفقراء حقهم فيه أولاً ثم استهلكوا منه.

باختصار، لقد جعل الإسلام حقوقًا للفقراء عند كل مناسبة، وهي خصوصية لا يشاركه فيها أي دين آخر، فليس في الدنيا دين قدَّم هذه العبادة بهذا الشكل، بل لا يوجد عند الديانات الأخرى عُشْرَ مِعْشار تعاليم الإسلام بهذا الشأن.

ورابعها: الصيام

أما الصيام فلا يوجد عند أية أمة أخرى صوم جماعي. نعمْ، يوجد عند المسيحيين بعض الصيام ولكن بشكل ناقص، كما يوجد مثل هذا الصيام عند الهندوس أيضا، فمثلاً يمنعهم الباندیت عن أكل المطبوخ على النار، فلا يأكل أحدهم ما مسّته النار، ولكنه يشرب خمسة لترات من الحليب الذي لم تمسّه النار، ويقول إني صائم! أما الإسلام فقد فرض صيام شهر كامل، ثم أمَرنا ألا نكتفي بالإقلاع عن الطعام والشراب فقط، بل علينا أن نكثر من القيام والعبادة والدعاء في شهر رمضان، ولا سيما في العشر الأواخر منه إذ فيها ليلة القدر. فالإسلام يتميز عن الأديان الأخرى في مجال الصيام أيضًا.

وخامسها: الحج

والحج أحد أركان الإسلام، وهو وسيلة عظيمة لاجتماع الأمة واتحادها. الحج ليس فرضًا في أي ديانة أخرى، لكن الإسلام فرض على كل مَن استطاع إليه سبيلا أن يحضر في مركز الإسلام مرة في حياته على الأقل. وفي الحج منافع شتّى؛ منها أنه إذا اجتمع الغني والفقير والحاكم والمحكوم والعالم والجاهل كلهم في مكان واحد، فلا بد أن يُعملوا فكرهم في حاجات الأمة، ويتنبهوا إلى أخطائهم وتقصيراتهم ويسعوا للتخلص منها. كما أن الإسلام قد نبَّه بالحج إلى إصلاح مركز الإسلام، الأمر الذي يؤدي إلى إصلاح الأمة وتقدُّمها.

باختصار، لقد آتى الإسلام بشأن العبادة والزكاة والصوم والحج من تعليمات للناس ما لا يوجد عُشْر مِعْشاره في أي دين آخر.

بعد إثبات فضل القرآن الكريم على الكتب الأخرى في مجال أصول الشرائع، أتوجه الآن إلى تفاصيل الشرائع لأثبت أن القرآن الكريم لا يتفوق على الكتب السابقة في بيان المبادئ فحسب، بل لقد أعطى الله تعالى نبيَّنا ﷺ كوثرًا بشأن تفاصيل الشرائع أيضا، بحيث ليس بوسع كتاب سماوي آخر أن يجاري القرآن الكريم في هذا المجال أيضا.

وأول ما يخصّ تفصيل الشرائع هو حقوق النساء. فعندما ذكر الله تعالى آدم في القرآن الكريم ذكَر معه زوجته التي استمر منها النسل الإنساني وازدهر، أما الصحف الأخرى فلن تعثر فيها على حقوق النساء، كما لن تجد بينها كتابًا يركّز على أن المرأة أيضًا كائن بشري. إن القرآن هو الكتاب الأول الذي أقرّ حقوق النساء، بل ركّز عليها بحيث فتح بابًا للعلوم والمعارف الجديدة. خُذْ مثلا الآيات الثلاث التي اختارها النبي ﷺ لتُقرَأ عند عقد القران – وهو اختيار مبني على الوحي عندنا– فهي تركّز على حقوق النساء تركيزا عظيمًا، وتوضّح أهمية هذا الأمر بجلاء تام. إذ قال الله تعالى في الآية الأُولى منها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:٢). فقد بيّن الله تعالى هنا أنه خلق الناس كلهم من نفس واحدة.. أي خلق الرجل والمرأة من جنس واحد، وكلاهما خُلق بعقل مماثل وأحاسيس وعواطف متشابهة. انظرْ كيف بدأ الله الحديث هنا مركِّزًا على حقوق المرأة، ونبّه الرجالَ ألا يظنوا أن النساء لا عقل عندهن وأن لهم أن يسيطروا عليهن ويعاملوهن كما شاءوا. كلا، بل إن المرأة أيضا خُلقتْ بمشاعر وأحاسيس وعقل مثلكم، فلا تعتبروها أدنى منكم وأحقر.

وبالإضافة إلى هذا التعليم المبدئي فقد أمر الرسول ﷺ أتباعه باستشارة النساء في الأمور الهامة، وكان بنفسه يستشير نساءه، وقد منحهن قدرا كبيرا من الحرية بهذا الشأن، حتى ورد في الحديث أن النبي ﷺ أراد أن يقيم مرة خارج بيته، فشاع بين الصحابة أنه قد طلّق نساءه، وكانت بنت عمر رضي الله عنه من زوجات النبي ﷺ المطهرات، فعلِم مِن بعض أصدقائه أن النبي ﷺ قد طلّق زوجاته كلهن، فلم يلبث

عمر أن ذهب إلى بنته، فوجدها تبكي، وقال: ما شأنك؟ قالت: لقد قرّر النبي ﷺ الإقامة خارج البيت، وقد خرج من البيت فعلاً. فحضر عمر إلى النبي ﷺ وقال يا رسول الله، كنا نصلح نساءنا بالعصا، ولكنك بدأتَ تعلّمنا ما سلّط النساءَ علينا، فقد قلت لزوجتي مرةً: لا تتكلمي في هذا الأمر، فردّت عليَّ: لا تقلْ لي هكذا، فقد ولّت الأيام التي لم تكونوا تعطونا فيها أي حق، أما الآن فإن الرسول ﷺ يستشير نساءه، فكيف تمنعني من الكلام في هذا الأمر؟ وكنت أخاف هذا! فانظرْ كيف اضطررتَ اليوم لتطليق زوجاتك. فضحك النبي ﷺ وقال: إني لم أطلق زوجاتي، وإنما قررتُ اعتزالهن بعض الوقت لمصلحة (البخاري: كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها).

لقد تبيّن من هنا أن الرسول ﷺ كان يركّز على حقوق النساء حتى أدركن أنهن لسن أقلَّ درجة من الرجال. والتاريخ يخبرنا أن عمر رضي الله عنه في عهد خلافته إذا أمر النساء بشيء، فكانت بعضهن تقول له أحيانًا: كيف تأمرنا بذلك والرسول ﷺ قد قال خلافه؟ (الجامع لأحكام القرآن: سورة النساء، قوله تعالى: وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ). وبغضّ النظر عن صحة ما قلن له، إلا أن هذا يكشف لنا أن الإسلام قد منح النساء حقّ إبداء رأيهن في الأمور التي تخص الجماعة. وقد ركَّز على ذلك تركيزا لا مثيل له في أي كتاب سماوي آخر.

ثم أعلن الرسول ﷺ أن المرأة لا تُزوَّج مِن دون إذنها. كانت العادة قبل الإسلام أن الوالدَين كانوا يزوّجون بناتهم من دون إذنهن، فما كان لهن إلا الخضوع لقرارهم. لا شك أن المسلمين في هذا العصر قد هضموا حق المرأة هذا، ولكن هذا ليس دليلاً على عيب في تعاليم الإسلام، كلا، بل إن الإسلام قد أعلن أن تزويج المرأة من دون إذنها باطل (أبو داود، كتاب النكاح). ما أعظمَ الحقَّ الذي منحه الله للنساء!

ثم إن القرآن قد خيّر المرأة في إرضاع الوليد، وقد تناول هذه القضية بتفاصيل لا يوجد لها نظير في أي كتاب آخر.

ثم إن الإسلام قد منح المرأة حق البيت المنفصل، وجعل لها مهرًا، وجعَلها وارثةً لأموالها وأملاكها. لقد اعتُرف بهذا الحق للمرأة في أوروبا لأول مرة قبل نحو نصف قرن فقط، أما قبل ذلك فلم تكن أملاك المرأة تُعتبر أملاكا لها، بل كان بعض الناس يتزوجون النساء خداعًا متظاهرين بأنهم من الرؤساء الكبار، ثم يستولون على أملاكها أو يبيعونها من دون أن يكون للمرأة أي حق في التصرف فيها. أما الإسلام فقد اعتبر أملاك المرأة وعقاراتها مِلْكَها الشخصي، وقد ركّز على هذا تركيزا جعل الصحابة يظنون أن أخذ شيء من أموالها، ولو بإذنها، حرام عليهم، حتى أنزل الله تعالى أحكامًا خاصة بهذا الصدد مبينًا لهم أنه يجوز للمرء أن يأخذ ما تعطيه زوجته من مالها عن طيب نفس. باختصار، لقد حافظَ الإسلام على حقوق المرأة بما لا مثيل له في أية ديانة أخرى.

أما الوالدان فهما الأَولى ببِرِّ الولد؛ إذ يتسببان في استمرار النسل الإنساني. فكل ما يتحلى به المرء من كفاءات فإنما هو بسبب والديه، فإذا هما لم يقوما بتربيته فكيف يكبر ويترعرع؟ وإذا لم يهتما بتعليمه فكيف ينال العزة في الدنيا؟ ومع ذلك إنه لمما يثير العجب أنه ليس هناك دين -سوى الإسلام- سلَّم بحق الوالدين في أموال أولادهما. لا شك أن هناك أحكامًا في التوراة باحترام الوالدين (الخروج ٢٠: ١٢)، ولكنها لم تجعل لهما حقًّا في أموال أولادهم. إنما القرآن وحده الذي أقرّ هذا الحق الهام للوالدين. لقد جعل القرآن الوالدين ورثةً فيما يتركه الأولاد، بل جعل لهما حقًّا أزيدَ من حقّ أولاد المتوفى أنفسهم، ذلك أنه إذا كثُر أولاده نال والداه أكثرَ مما يناله كل واحد من الأولاد، وهذا أمرٌ لا نظير له في الدنيا؛ إذ ليس هناك دينٌ أقرَّ للوالدين هذه الحقوق. لا شك أن جميع الأديان تأمر بالبر بالوالدَين واحترامهم وإكرامهم، ولكنه مجرد كلام. إنما الإسلام وحده الذي أقرّ حقّ الوالدين في أموال أولادهم، مؤكدًا مكانتهما العالية.

ثم إنه لم يكن للبنت حق في الإرث قبل الإسلام، فأقرَّ حقَّها فيه وأعلن أنها ترث مال المتوفى حقًّا لها كما يرثه ابنه.

الواقع أن الإسلام قد نبّهنا إلى أمر هام، ألا وهو أن أموال الدنيا ثروة مشتركة لأهلها وليست مِلْكًا حقيقًا لفرد واحد، كذلك فإن لجميع الناس حقا فيما يكسبه الفرد، لأنه لا يستطيع أن يكسب وحده، بل لا بد أن يستعين بالآخرين، فيصير للآخرين حق فيما يكسبه من مال. وأوضحُ مثال لذلك هو أن كل التجارات الكبيرة تكون في المدن لا في القرى، وذلك لتيسُّرِ مرافق النقل والحركة والطرق المرصوفة والقطارات والشاحنات وما إلى ذلك. يا ترى، لماذا تُفتح الفنادق والمطاعم في المدن لا في القرى؟ إنما سببه كثرة الناس في المدن. ولو فتح المرء مطعمًا أو فندقًا في قرية لبار وكسد. لم تكن توجد في القرى خانات لمبيت المسافرين في الماضي، بل كانت في المدن. ثم لا توجد مستودعات كبيرة في القرى لادخار البضائع. هذه المرافق والتسهيلات لا تتيسر في المدن إلا بسبب كثرة السكان هناك، ولذلك يصبح للآخرين نصيب فيما يكسبه أهل المدن، ومن أجل ذلك قد سنّ الإسلام قانونًا بأن للجيران حقًا فيما يكسبه المرء؛ إذ لولاهم لما كسب شيئا. ثم بيّن الله تعالى أن هذا الحق لا يُمنح للجيران مجانًّا، وإنما لأن وجودهم ينفع المرء ويساعده على كسب المال، إذ لولا أهل المدينة لما كسب شيئا. فلما كان الآخرون يتسببون في كسب المال، فجُعل لهم الحق فيه.

كذلك لا يستطيع أي تاجر ممارسة عمله من دون مساعدة أفراد عائلته، فكيف يخرج في سفر تجاري إذا لم تكن له زوجة ترعى بيته في غيابه؟ فإنما يكسب هو لأن زوجته تدير بيته ليكسب وهو فارغ البال. ثم إن أولاده أيضا يساهمون في تجارته إلى حد ما، ويبقى ماله محفوظا بسبب بيته العامر. ومن أجل ذلك جُعل لهؤلاء حق في ماله.

ثم جُعل لأخيه أيضا حق في ماله، لأنه يساعده في عمله بطريق غير مباشر وإن لم يساعده مباشرة، ذلك أنه لو أقرض أحدا مالاً، فلا يُسدَّد له الديْن إلا بسبب، ذلك أن ذوي الأخلاق العالية يسدّدون ما عليهم من دين بأنفسهم، ولكن الذي لا خلاق له فإنما يدفع دَيْنه خوفًا من إخوته وقومه؛ ومن أجل ذلك جعل الأقارب الأقربين- كالوالدين والزوجة والابن والبنت والأخ والأخت وغيرهم- ورثةً في

أموال الميت، وإذا لم يوجدوا فالجدّ والجدّة للأمّ والأب، والحفدة والحفيدات وأبناء الأخ وغيرهم.

والقرآن هو الكتاب الوحيد بين الكتب السماوية كلها الذي بيّن أن هناك حقًا لأفراد العائلة في ما يكسبه المرء.

ثم إن الإسلام قد حثَّ على تعليم البنات، فعن عائشة -رضي الله عنها- أنها أخبرت النبي ﷺ أن امرأة فقيرة جاءتها مع ابنتيها، فأجلست إحداهما على يمينها والأخرى على شمالها، ثم سألتها شيئا من الأكل، و لم يكن عندها طعام، إنما وجدتْ تمرة واحدة فقط، فأعطتْها إياها قائلة: هذا كل ما يوجد الآن. فشقّت التمرة نصفين، وأعطت كل واحدة منهما نصفًا، و لم تأكل منها شيئا. فقال النبي ﷺ: مَن كان له بنتان فأحسن تربيتهما وعلّمهما أوجب الله له الجنة (البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب بر الوالد).

انظرْ كيف ركّز الإسلام على تعليم البنات وتربيتهن. إن الناس في هذا العصر يعلِّمون بناتهم للحصول على وظيفة، ولكن الله تعالى لم يجعل من واجبات النساء أن يتوظَّفن. لا شك أن بنات المسلمين يعملن في هذا العصر، ولكن الإسلام قد فرض على المرأة مسؤوليات البيت، لذلك فإنها لا تتعلم لتتوظف وتعمل، إنما تتعلم لمجرد التعليم. ومع ذلك قد حثّ الإسلام على تعليم النساء، الأمر الذي لا يوجد في الصحف الأخرى.

ثم هناك حقوق الزوجة، وقد فصّلها الإسلام تفصيلا، فأمَر الرجلَ أن يعامل زوجته بالحب والرفق. لا شك أن كل زوج يحبّ زوجته، بل بعضهم يعشقون زوجاتهم، حتى إنهم يتركون دينهم من أجلهن. ولكن السؤال هنا: ما هي الحقوق التي أقرها دينهم لزوجاتهم؟ إنما الحبّ أمرٌ فطريّ قد يدفع إلى الضلال أو إلى الهدى، لذلك فالسؤال هنا: ماذا يعلِّم الدين عن المرأة؟ الواقع أن الأديان الأخرى لم تُقِرّ للزوجة أية حقوق، إنما أقرها الإسلام وحده؛ فهو يأمرنا ألا نضرب نساءنا، وأن نعاملهن برفق ولطف. ثم بيّن أن المرء مسؤول عن إطعامها وكسوتها (أبو داود، كتاب النكاح). إن العادة في أوروبا حتى اليوم هي أن مال الزوجة يُعتبر مال

الزوج، ينفقه كيف يشاء، فهو حرٌّ في أن يحتفظ به أو يرجعه لها، ولا خيار للزوجة فيه. ولكن الإسلام قد اعتبر المرأة مالكةً لمالها وعقارها، تتصرف فيه كما تشاء وتعطيه من تشاء. والرجل مسؤول عن كفالة زوجته والإنفاق عليها، فلو كانت الزوجة مثلاً تملك نصف مليون روبية، والزوجُ يملك خمس روبيات فقط، فعليه أن يطعمها من الخمس الروبيات، لأنه اتخذها زوجة له، فهو المسؤول عن طعامها وكسوتها، ولا يحق له أن يأخذ من مالها جبرا.

أما الطلاق فقد وضع له الإسلام شروطا معينة حفاظًا على حقوق المرأة. أما ضرب المرأة فقد أمر الإسلام الرجل بأخذ منتهى الحذر في عقابها، فيجب ألا يضربها ضربًا يترك أثراً على جسمها. وقال الرسول ﷺ: خيرُكم خيركم لأهله. (الترمذي: أبواب المناقب عن رسول الله، باب ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه).

باختصار، لقد بين الإسلام حقوق المرأة بما لا نظير له في أي كتاب آخر.

أما الأولاد فقد أصدر الإسلام بشأنهم أيضا أحكامًا كثيرة. في القديم كان الآباء يرون من حقهم بيع أولادهم وحتى قتلهم لأنهم من نطفتهم، فكانت بعض القبائل العربية تقتل بناتها (معالم التنزيل، تفسير سورة التكوير)، وكذلك بعض الآباء كانوا يبيعون أولادهم، فحظر الإسلام كل هذه العادات القبيحة وأعلن أن مَن باع حرًّا فقد استوجب القتل.

كما نهى الله تعالى عن قتل البنات، وقال: لا تظنوا أنكم لن تُسألوا عن قتلهن، كلا بل ستُسألون عن قتلهن يوم القيامة ولن تقبل حجتكم أنها بنتكم أو من نطفتكم. إنها أَمَةٌ لنا قبْل أن تصبح بنتًا لك، فكيف يحق لك قتلها؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾(التكوير:٩).. أي لا يحق لكم قتلها، إنما جعلناها سببًا لاستمرار النسل الإنساني، ولو قتلتم بناتكم فسوف تُسألون يوم القيامة.

باختصار، لقد منح الإسلام المرأةَ حقوقًا لا أثر لها في الكتب السابقة

ثم هناك حقوق المجتمع. عندما يخرج الإنسان من أهله يأتي إلى مجتمعه، وحقُّ الجار مقدَّم على حق غيره من أفراد المجتمع. لا شك أن الأديان الأخرى أيضا قد

أعطت تعليمات بحق الجيران، ولكن الإسلام قد منح الجار حقوقًا لا مثيل لها في الأديان الأخرى. لقد ركّز الإسلام على هذا الأمر جدًّا حتى قال النبي ﷺ: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (البخاري: كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار). ثم إن الإسلام قد أعطى أحكاما مفصلة عن حقوق الجيران، وقد حث على أدائها حثًّا. روي أنه كان لابن عباس ● -رضي الله عنهما- جار يهودي، وكان كلما جاء إلى البيت سأل أهله: هل أرسلتم لجاري اليهودي شيئًا أم لا؟ لقد كان شديد الاهتمام به حتى اعتبر إهمال أمره إثما.

ومن حقوق المجتمع توفير الغذاء والهواء والماء للمواطنين، لأن تلوُّثها يؤدي إلى انتشار الأمراض، وقد ركز الإسلام على ذلك كثيرا، فقد نهى النبي ﷺ عن البول في الماء الراكد وإلقاء القاذورات فيه (البخاري، كتاب الوضوء). فكون الماء نقيًّا ضمان لصحة أهل المناطق التي فيها شُحُّ الماء. إن الناس اليوم يعرفون مبادئ الوقاية، ولكن الرسول ﷺ قد قدّم هذه التعليمات عن الماء قبل أكثر من ١٣ قرنا حين لم يكن عند الناس إلمام بمبادئ الوقاية. فما أعظمَ فَضْلَ الإسلام على الأديان الأخرى في هذا المجال!

ثم إن العيش في المناطق الضيّقة المكتظّة بالسكّان يضعف صحتهم، ولذلك أمر النبي ﷺ بجعل الأزقة والشوارع واسعة كي لا تتضرر صحة الناس بالهواء غير النقي. كانت الجِمال والخيول هي وسائل النقل والمرور في ذلك العصر، ومع ذلك قد أمر الرسول ﷺ أن تكون سعة الشارع ما بين ٨ إلى ١٠ أقدام، والطريق ما بين ١٥ إلى ٢٠ قدما على الأقل.

وإذا كانت هذه السعة ضرورية للطريق الذي تمرّ به الجمال والخيول، فيمكننا القول قياسا عليه أنه لا بد من أن يكون الطريق الذي تمرّ به السيارات والحافلات

● ورد حادث كهذا عن عبد الله بن عمرو وليس عن ابن عباس (أبو داود، كتاب الأدب) (المترجم)

اليوم ثلاثة أضعاف على الأقل. وهكذا فالشوارع يجب أن تكون سعتها ما بين ٢٠ إلى ٣٠ قدما والطرق ما بين ٤٥ إلى ٦٠ قدما.

ثم إن النبي ﷺ قد نهى عن البصاق في مكان يجلس فيه الناس، وقال: إذا بصق أحدكم في المسجد فليأخذه وليدفنه في مكان آخر (البخاري: كتاب الصلاة). ومن هنا نستنتج قانونًا عاما بعدم إلقاء الأوساخ في مكان يجتمع فيه الناس. أما الطرق فقال الرسول ﷺ: إن في إماطة الأذى عن الطريق صدقة (البخاري، كتاب المظالم)، بل كان النبي ﷺ يزيل من الطريق بيده ما يؤذي الناس من شوك وغيره. كما نهى الرسول ﷺ عن التغوط في الطرق قائلا: إن هذا مما يثير غضب الله (مسلم، كتاب الطهارة).

لقد أعطى النبي ﷺ هذه التعليمات في زمن يسمى زمن الجاهلية، ولكنك لو نظرتَ اليوم في شوارع لاهور وكويتة وبيشاور وغيرها من المدن الكبيرة عندنا لوجدت القاذورات ملقاة أمام بيوت الناس. مع أن الرسول ﷺ لم ينه عن ذلك فحسب، بل اعتبره عملاً يعاقَب عليه صاحبه.

باختصار، قد نهى الرسول ﷺ عن البول في الماء الراكد وإلقاء النفايات فيه، وأمر بجعل الشوارع واسعة، ونهى عن إلقاء النجاسات والنفايات في مكان يجتمع فيه الناس. كما أمر بالاغتسال والتطيّب قبل الخروج إلى مكان الاجتماع دفعًا للرائحة الكريهة الخارجة من الأجساد والأنفاس (البخاري، كتاب الجمعة)، واستحب تعطير مكان الاجتماع وتبخيره كي تنتشر فيه الروائح العطرة وتقتل الجراثيم (الترمذي، أبواب الجمعة)، فالغسلُ يزيل ما يخرج من الثياب الوسخة ومن الإبط من رائحة كريهة، والعطر يزيل ما بقي من الرائحة الكريهة. فيا لها من تعليمات حكيمة! وقد أعطاها النبي ﷺ حفاظًا على صحة الناس وكي لا يصابوا بالأمراض، فيتأخروا عن التقدّم في الدنيا.

ومن حقوق المجتمع ألا يتطرق الفساد إلى معاملات الناس وتجاراتهم، والإسلام لم يهمل هذا الحق أيضا، فقد نهى عن رفع الأسعار أو تخفيضِها عمدًا بهدف الإضرار بتجارة الآخرين أو المشترين، ففي إحدى المرات مرّ سيدنا عمر رضي الله عنه برجل

يبيع الزبيب أرخصَ مما يبيعه الباعة الآخرون في المدينة، فزجره وقال: لماذا تضرّ بالباعة الآخرين؟ (فقه حضرة عمر للدكتور محمد رواس قلعه جي ص ١٧٣)

ثم إن الإسلام قد نهى أهل مدينة موبوءة عن الانتقال إلى مدينة أخرى، لأن هذا سيؤدي إلى تفشّي المرض فيها أيضا. لقد ظنّ الناس خطأً أن الخروج من مدينة موبوءة ممنوع، مع أن هذا جائز، وهذا ما فعل الصحابة، إنما الممنوع هو أن يهاجروا إلى مدينة أخرى، أما أن يخرجوا إلى الغابات والبراري فليس بممنوع بحسب الشريعة أبدا. عندما نشبت الحرب بين المسلمين والقيصر الروماني بعد الرسول ﷺ كان أبو عبيدة بن الجراح قائد الجيش الإسلامي، فتفشى الطاعون في الجيش وفتك بكثيرين منهم، فاستشار أبو عبيدة سكانَ تلك المنطقة، فأشاروا عليه بالخروج إلى العراء للعيش في الهواء الطلق، فأخذ أكثر الصحابة بمشورتهم وذهبوا إلى الجبال، ولكن أبا عبيدة لم يرحل من المكان، فمرض واستشهد بالطاعون (البخاري، كتاب الطب). إذن، كان الصحابة يرون أن الإسلام ينهى عن الخروج من المنطقة الموبوءة إلى مدينة أخرى كي لا ينتقل المرض إلى الآخرين، أما الخروج إلى الفلوات والجبال والبراري فليس ممنوعا.

فما أروعَه من قانون سنَّه الرسول ﷺ في وقت لم تكن فيه الأمراض المعدية قد اكتُشفت بعدُ؛ بل قد اكتُشفت بعد ذلك بكثير، فنهى ﷺ الناس مستنيرًا بنور الله وفيوض القرآن عن الهروب من مدينة موبوءة إلى أخرى لكي لا تنتقل العدوى إلى الآخرين. غير أنه لم ينهَهم عن الخروج إلى السهول والفلوات.

ثم إن الإسلام قد اهتمّ بتعليم الأُمّة. كان الناس في الماضي يعلّمون أولادهم بشكل فردي، ولكن الإسلام أقرَّ حقَّ تعليم أولاد الأُمة، فقد قال الرسول ﷺ لأسرى غزوة بَدْرٍ لا نأخذ منكم فدية، بل كلّ مَن علَّم منكم عشرةً من أولاد المدينة فهو حرٌّ (مسند أحمد بن حنبل، مسند عبد الله بن العباس)؛ فقام كل واحد منهم بتعليم عشرة أولاد، وهؤلاء قد علّموا غيرهم، وهكذا صار كل أنصاريّ متعلمًا. إن ما يقدّمه الأسير من فدية هو مالُ الأمة، وقد أوضح الرسول ﷺ بتعليم

أولاد المدينة على أيدي هؤلاء الأسرى أن مال الأمة يمكن أن يُنفَق على تعليم أبنائها، وأن التعليم من واجب الدولة.

ثم إن الإسلام هو الذي أقرَّ حقوق المواطنين، حيث يعلن أن الدولة مسؤولة عن توفير الغذاء والكساء والسكن لكل مواطن. وإن الإسلام هو أوّل من أقرَّ هذا المبدأ. لقد بدأت الدول الأخرى الآن تقليد الإسلام ولكن بشكل ناقص، حيث تقوم بالتأمين وتقدِّم المعاش للعائلات، أما أنْ توفر الدولة الغذاء والكساء والسكن للمواطنين في شبابهم وشيخوختهم فهذا المبدأ لم يقدّمه أي دين قبل الإسلام. تقوم الحكومات الدنيوية بإحصاء السكان بهدف فرض الضرائب عليهم أو معرفة عدد الشباب الذين يمكن تعبئتهم في الجيش عند الحاجة، أما الدولة الإسلامية فقامت بإحصاء سكانها في زمن عمر ﷺ أول مرة، ولكن ليس لفرض الضرائب ومعرفة عدد الشباب لتعبئتهم في الجيش عند الحاجة، بل لتوفير الغذاء والكساء لكل مواطن (تاريخ الطبري ج ٣ السنة الثالثة والعشرون). لا شك أن إحصاءً قد أُجري في زمن الرسول ﷺ (البخاري، كتاب الجهاد والسير)، ولكن لم يكن حُكْم المسلمين مستتبًّا في ذلك الوقت، فكان ذلك الإحصاء لمعرفة عدد المسلمين فقط.

إن توفير الغذاء واللباس للمواطنين أمرٌ بالغ الأهمية لإرساء الأمن في العالم، أما القول بأن مَن كان بحاجة إلى شيء فليقدم طلبه للحكومة لتنظر فيه، فهذا لا يحتمله كل غيور ذي كرامة، ولذلك جعل الإسلام الدولةَ مسؤولة عن توفير هذه الحاجيّات لكل مواطن –فقيرا كان أم ثريا، ولو كان مليونيرا، بل ولو أهداه بعد استلامه من الدولة لشخص آخر– وذلك كي لا يكون عنده إحساس بالدونية. وهذا ما فعل الإسلام كي لا يشعر أحد بالإهانة.

أما التجارة فقد وضع لها الإسلام قواعد شتى لكي لا يغشّ فيها أحد. فمثلا قد نهى عن شراء شيء من دون رؤيته، فلا يجوز لأحد أن يبيع كومة من القماش، بل إذا أراد المشتري أن يراه ويتفحصه فعلى البائع أن يسمح له بذلك. كما لا يجوز للبائع أن يقول للزبون أنه لو اشترى البضاعة كما هي فسوف يخفض له من سعرها. ولا يسمح الإسلام أن يقول المشتري مثلا: ألقي هذه الحصاة فما وقعت

عليه فهو لي، أو يقول: أشتري هذا القمح مثلا مِن دون وزنه. خرج النبي ﷺ مرة إلى السوق فوجد البعض يقول أن هذه الكومة من القمح بكذا، وتلك بكذا، فأدخل ﷺ يده في القمح فوجده مبللا، فقال في غضب: لماذا هذه الحبوب مبللة؟ قال: يا رسول الله، بلّها المطر. قال ﷺ: فلماذا خبّأتها و لم تُظهرها للناس؟ ثم حرَّم مثل هذه الصفقة. كذلك نهى النبي ﷺ عن بيع وشراء فيه غش. (مسلم: كتاب الإيمان، والبخاري: كتاب البيوع).

ثم إن الإسلام حرّم القمار، لأن المقامر يكسب بطريقة تضر بكثير من الناس، كما أن القمار يرغّب الناس عن التجارة الصحيحة. واليانصيب الذي يمارسه المسلمون اليوم أيضا قمار، والقمار ممنوع بأي شكل كان، سواء بالقرعة أو برمي سهم.

ثم إن القرآن يأمر بالكتابة عند البيع والشراء. الشركات الغربية اليوم تعطي إيصالا، وكل الغرب يفتخر بذلك، مع أن القرآن هو أول من علّم هذا المبدأ التجاري، ولكن المسلمين قد أهملوه لسوء حظهم.

أما الرهن فقد أوصى الإسلام أن يكون مقبوضا ومكتوبًا.

ثم إن الإسلام أحلّ بيع السَّلَم، ◈ الغريب أن المسلمين اليوم يتعاملون بالربا، ولكن يحرّمون بيع السلَّم، مع أن الإسلام أحلّه وحرّم الربا. يقال اليوم أنه لا حرج في أخذ الربا الذي تعطيه البنوك، مع أنه قول باطل تماما. الربا ربا.. أيا كانت تسميته، وهو محرم. كذلك قد وضع الإسلام مبادئ كثيرة أخرى للتجارة، ولا بد من الالتزام بها لازدهارها. لقد بدأ النظام البنكي في البلاد الإسلامية نتيجة غفلة المسلمين عن هذه الأحكام، ولا يمكن إيقافه الآن دفعة واحدة، لأن ذلك يؤدي إلى انهيار الدول اقتصاديا. ولو أن المسلمين استمروا في بيع السَّلَم منذ البداية لما أحكمت البنوك قبضتها عليهم اليوم، غير أنه يمكن إيجاد طرق أخرى بإعمال العقل

◈ بيع السَّلم: مبادلة الدين بالعين، أو بيع شيء مؤجل بثمن معجل. (المترجم)

والفكر لاستمرار التجارات. لقد كان الناس يمارسون التجارة في الماضي أيضا، وكان بين المسلمين تجار كبار يقومون بالتجارة من دون ربا، ولم يكن عندها أي بنوك.

أما الزراعة فقد وضع الإسلام لها قوانين رائعة، فمثلاً قد نهى الرسول ﷺ عن بيع الثمر والزرع قبْل نضجه (البخاري، كتاب البيوع)، لأن فيه مغامرة، إذ قد تهبّ العواصف، فيسقط الثمر، وتخرج الغلال أقلّ من المتوقع. لقد نهى الإسلام خاصة عن بيع الثمار قبل نضجها إلا أن تُباع الأرض مع أشجارها، حتى إذا خسر المشتري في الثمار غطّى هذه الخسارة بالزراعة.

باختصار، إن بيع الثمر قبل نضجه ممنوع.

ثم قال الله تعالى بشأن الزراعة: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(الأَنعام:١٤٢).. أي إنما يجوز لكم الانتفاع بالمحاصيل إذا أديتم حق الفقراء فيها، وإلا فلا.

أما قضية إيصال الماء مرورًا بأراضي الآخرين، فأوصى الإسلام بألا يمنع المرء غيره من أخذ الماء مرورا بأرضه (البخاري، كتاب المساقاة)، وإلا فإن هذا يؤدي إلى خراب الأراضي.

أما الزواج فقد وضع له الإسلام قواعد عديدة، وعلى سبيل المثال قد جعل المهرَ للمرأة، وحثَّ على رؤية الفتاة قبل الزواج تفاديًا لأي فتنة فيما بعد. إن رؤية الفتاة قبل الزواج بعد تراضي الأسرتين على الزواج يحمي من فتن كثيرة. أراد شاب في زمن الرسول ﷺ الزواج من فتاة، وأعجب بها، غير أنه قال لأبيها إني متفق معك على كل شيء، فاسمح لي أن أرى البنت أيضا، وكان حُكم الحجاب قد نزل، فرفض أبوها طلبه، فذهب الشاب إلى النبي ﷺ وحكى له قصته، فقال ﷺ: لقد أخطأ أبوها، ما دمتَ قد اتفقت مع أبيها على كل شيء فلا بأس أن تراها. فذهب الشاب إلى أبيها وبلّغه قول الرسول ﷺ، فقال أبوها: ولكن غيرتي لا تحتمل ذلك، فلن أسمح لك برؤية ابنتي. وكانت الفتاة تسمع تحاوُرهما، فخرجت من وراء الحجاب مكشوفة الوجه، وقالت للفتى: ما دام الرسول ﷺ قد قال أنه يجوز لك رؤيتي، فكيف يمنعك أبي من رؤيتي؟ فها أنا واقفة أمامك. فتأثّر الشاب من قولها

وغضّ طرفه و لم ينظر إلى الفتاة وقال: سأتزوجها من دون النظر إليها لإيثارها حبّ النبي ﷺ على حب أبيها.. فتزوّجَها من دون أن ينظر إليها. (ابن ماجه: كتاب النكاح)

فالإسلام قد وقى المسلمين بفرض الحجاب من الفتن التي تأتي من المرأة من ناحية، ومن ناحية أخرى تفادى الفتن الناجمة عن اللون أو الملامح أو الصورة التي قد تتولد نتيجة التسرع في الزواج، فقال ﷺ بأن لا حرج في رؤية البنت قبل الزواج.

أما فيما يتعلق بالحُكْم، فقد تناول القرآن هذه القضية أيضا وبيّن حقوق الحاكم وواجباته ومدى سلطته وأوامره، وقد تناول الإسلام كل هذه القواعد ببيان مفصل. كما أمر أن يتم اختيار الحاكم بالانتخاب، إذ ليس هناك دين آخر قدّم فكرة انتخاب الحاكم.

ثم إن الإسلام يأمر الحاكم باحترام الرأي العام إلا إذا كان فيه مخالفة للدين أو ضرر بمصلحة الأمة. بعض الحكام يقولون نحن منتَخَبون من الجماهير فلا داعي أن نستشير أحدًا، ولكن الإسلام لا يُجيز هذا، بل يأمر الحاكم بتشكيل هيئة استشارية وأن يلتزم بقرار أغلبيتها، إلا أن يكون خلافًا لمصلحة الأمة. والواضح أن الحاكم إذا كان منتخبًا من الجماهير فلن يخالف قرار أكثرية الهيئة الاستشارية من دون سبب، إنما يخالف رأيها إذا كان خلافًا لمصلحة الدولة أو الأمة، ولا يمكن أن يَتّخذ مثل هذه الخطوة إلا مَن هو أمين ويخاف الله تعالى. باختصار، قد أوضح القرآن الكريم أهمية المشورة كل الإيضاح، بل أمر الله تعالى رسوله قائلا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٦٠). وهذا الأمر لا يوجد في أي ديانة أخرى. إن الديمقراطية التي ينادي بها الديمقراطيون اليوم إنما قدّمها الإسلام بشكلها السليم، ولا يمكن لدين أن يبلغ شأو الإسلام في هذا المجال.

والآن أتناول أحكام الإسلام المتعلقة بالأعداء: كلما بعث الله تعالى رسله لهداية الناس آمن بهم البعض وعاداهم الآخرون. وأمْرُ العَداء والصداقة ليس خاصًا

بجماعات الأنبياء، بل هذا ما نراه في مجال السياسة أيضا؛ فبعض الدول تصادق دولاً أخرى، وبعضها تعاديها. ولكن ليس هنالك دين بيَّن الحقوق والقواعد بشأن الأصدقاء والأعداء أيضا سوى الإسلام. ورد في التوراة أنكم إذا اقتحمتم بيوت الأعداء فاقتلوا البالغين منهم جميعا واْسِروا نساءهم وأطفالهم، بل تأمر التوراة بقتل أنعامهم أحيانًا، وهذا منتهى العنف (التَّثْنية٢٠: ١٠-١٦، ويشوع ٦ :٢٠-٢١). ولكن الإسلام أعطى تعليمات سامية هي ذروة العدل، فمثلا قال الله تعالى عن الحرب: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾(البقرة:١٩١).. أي حاربوا الذين يحاربونكم، أما الذين لا يرفعون عليكم السيف فلا يحق لكم قتالهم ورفع السيف عليهم.

ثم إن الإسلام ينهى المسلمين أن يرفعوا السيف على المرأة وإن كانت مشتركة في الحرب، إلا في حالات استثنائية. ورد في التاريخ أن صحابيا رأى في ساحة القتال شخصا يحرّض الكفار على قتال المسلمين، فتقدّمَ نحوه وأراد ضربه بالسيف، ثم امتنع ورجع؛ فقال له أصحابه: لماذا لم تقتله؟ فقال: عندما اقتربت منه عرفت أنها امرأة في لباس رجل، فلم أستسغ قتلها. (السيرة الحلبية: ج٢ غزوة أحد). فمع أن المرأة كانت تحرّض الكافرين على القتال، وكان كثير من المسلمين قد تضرروا بسببها، إلا أن الصحابيّ لم يتعرض لها، لأن الرسول ﷺ منع من قتل المرأة.

كذلك ورد في الحديث أن الرسول ﷺ كان ذات مرة يتفقد ساحة القتال بعد انتهاء المعركة، فوجد امرأة مقتولة فاحمرَّ وجهه وقال: إنّ مَن قتلها قد ارتكب منكرا، لا يجوز قتل النساء (البخاري، كتاب الجهاد).

وكان النبي ﷺ إذا بعث جيشًا أوصاهم بأنْ قاتِلوا في سبيل الله، ولا تغدروا، ولا تخونوا، ولا تغشّوا، ولا تُمثِّلوا بجثث الأعداء، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا المتعبدين في معابدهم ولا شيخا هرمًا. (أبو داود: كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين)

لقد ثبت من هنا أن الإسلام قد أقرّ حقوق الأعداء أيضًا وأمر بالإنصاف إليهم. وعندي أنه لا يوجد نظير لهذه الرحمة في أي ديانة أخرى. لا شك أنه قد سُنّ الآن

قانون عالمي للحرب وُضعتْ فيه قواعد مشابهة لأحكام الإسلام هذه، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: عندما لم تكن هذه القواعد الحربية والسياسية قد وُضعتْ من قِبل الناس و لم يكن أحد يعرف هذا النظام، فمَن الذي أعطى هذه التعليمات الذهبية للعالم، وأخرج الناس من حضيض الوحشية والهمجية وعلَّمهم الإنسانية والمؤاخاة؟

كان النبي ﷺ إذا سار إلى الأعداء لقتالهم، أقام خارج ديارهم ليعرفوا بقدومه، كي لا يهاجمهم خطأً أو على حين غرة منهم، فكان ينتظر حتى الصباح، فإذا سمع الأذان من ديارهم لم يهاجمهم، وإذا لم يسمع الأذان من عندهم، حمل عليهم بعد الصباح حتى لا يتضرر أحد من حلفاء الإسلام والمتعاطفون معه (مسلم، كتاب الصلاة). أما اليوم فإن الناس يغيرون العدو ليلاً على حين غفلة منه، الأمر الذي كان النبي ﷺ يتفاداه دائمًا. لا شك أن المسلمين كانوا يباغتون العدو ليلاً أحيانًا، لكنهم لم يكونوا هم البادئين في ذلك البتة، بل كان العدو هو البادئ في ذلك، فكانوا يضطرون للانتقام منه بمثله. لقد أعطى الرسول ﷺ تعليمات صريحة أن لا يهاجَم العدو ليلا ومن دون إعلامه، وألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا الشيوخ ولا القسس والرهبان المنقطعين إلى عبادتهم في الصوامع والكنائس، ولا يقتلوا الذين جلسوا في بيوتهم و لم يشتركوا في القتال. إنما يقاتلون الذين يشتركون في قتالهم.

ثم إن الإسلام جعل من قواعد الحرب ألا يتم قتال قوم من دون إعلان الحرب عليهم. إن القانون العالمي اليوم أيضا يطالب بإعلان الحرب قبل القتال، ولكن الإسلام هو الذي وضع هذا المبدأ قبل غيره، وأمر المسلمين بشأن قوم بينهم وبينهم معاهدة: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾(الأَنْفال:٥٩).. أي أنّ عليهم قبل بدء قتال هؤلاء الذين عقدوا معهم صلحًا، أن يعلنوا نيّتهم في قتالهم ويخبروهم أنه لا يمكن أن يستمر الصلح بين الطرفين بسبب الظروف الحالية؛ وذلك لكي تتاح للعدو الفرصة لإصلاح خطئهم، فإذا لم يفعلوا ذلك فيمكن قتالهم.